عـود الـنـد: افتتاحيات ومقالات - الجزء الأول

غـسان يـبـتـسم

الأعمال الأدبية والمحرمات

عن الهوية	الإعجاب الإجباري	رابع المستحيلات
عن الحداثة	أعجوبة قرنين	الترجمة والأوهام
عن التاريخ	العودة سائحا	دراويش محمود
عن حب الحياة	عن اللغة والتخلف	فاشية إسلامية؟

العدالة الاجتماعية ونهاية التاريخ

عشر ملاحظات في عصر الثورات

عـدلي الهـواري

Ghassan Yabtasem

Adli Hawwari

عـود الـنــد: مجلة ثقافية رقمية. صدر العدد الأول منها في مطلع حزيران 2006. ناشرها ورئيس تحريرها د. عدلي الهواري. في تشرين الثاني 2007 حصلت المجلة مـن المكتبة البريطانية عـلى الرقم الدولي للدوريات، وهـو: ISSN 1756-4212. شارك في المجلة كاتبات وكتاب من دول المغرب العربي ومشرقه والمهجر. طبقت المجلة معايير جودة تشمل مراجعة النصوص قبل نشرها، ومارست عملها في خدمة الثقافة على أساس غير ربحي وغير تجاري، المجلة مفتوحة للتصفح دون قيود، وخالية من الإعلانات. عنوان موقع المجلة في الإنترنت: oudnad.net.

عـدلي الـهـواري: دكـتـوراه في الـدراسـات السياسية، جامعة وستمنستر، لندن. معد ومقدم ومنتج برامج إذاعية، 1987-2003. له مجموعة من الكتب بالعربية وبالإنجليزية، منها «بيروت 1982: اليوم ي»؛ «الديمقراطية والإسلام في الأردن»؛ «تقييم الديمقراطية في الأردن»؛ «المجلات الثقافية الرقمية»؛ «الحقيقة وأخواتها»؛ «اتحاد الطلبة المغدور» الذي وثـق فيه تجربة تأسيس وانهيار الاتحاد العام لطلبة فلسطين في الولايات المتحدة الأميركية.

مقالات ثقافية

Editorials
Ud al-Nad
UK £6.5

ISBN 978-1-911431-04-6

غسان يبتسم

مقالات ثقافية وفكرية

النسخة الرقمية

عدلي الهواري

2021

First published in the United Kingdom 2016 by
Ud al-Nad Ltd
11 White Heart Avenue, Uxbridge UB8 3EP
Copyright © Adli Hawwari, 2016, 2021
All rights reserved
First digital edition
Printed in the United Kingdom

Adli Hawwari has asserted his right under the Copy, Design and Patents Act 1988 to be identified as the author of this work.

ISBN: 978-1-911431-04-6

www.oudnad.net
info@oudnad.net

غسان يبتسم
مقالات ثقافية وفكرية
عدلي الهواري
النسخة الرقمية الأولى 2021

جميع الحقوق محفوظة © عدلي الهواري

عود الند
لندن، بريطانيا

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال إلا بإذن خطي مسبق من الناشر.

المحتويات

مقدمة النسخة الرقمية 9
المقدمة 12

شؤون ثقافية: 1

صدور مجلة **عـود الـنـد** 15
رابع المستحيلات 17
اللغة العربية على طريق الانقراض؟ 19
الأعمال الأدبية والمحرمات 21
الترجمة والأوهام 23
الرواية العربية: البحث عن جمهور في الغرب 25
عبرة من سحب جائزة 27
قراءة الكتب والقراءة الإلكترونية: مقارنة 29
دراويش محمود 32
الجوائز والتغاضي عن الأخطاء الفادحة 34
الإعجاب الإجباري 37
الوجه البشع لحكم القانون 39
الفيلم الصامت والنشر الورقي 41

هل الأدب العربي (لا يزال) محظور(ا)؟.....43
رحيل الطاهر وطار وغازي القصيبي.....46

شؤون ثقافية 2: عن ...

عن البداوة والأعراب.....49
عن حب الحياة.....51
عن الهـوية.....53
عن ظاهرة تحقير العرب.....55
عن الأبراج العاجية.....57
عن دور المحرر الثقافي.....59
عن عالمية الأدب والفن العربيين.....61
عن الغناء والأدب والجماهير.....63
عن اللغة والتخلف.....66
عن ورثة ابن رشد.....68
عن الأدباء والمفكرين.....70
عن الانتماء لقيم.....72

قضايا سياسية وفكرية وإعلامية

غسان يبتسم.....76
حضن الإنسانية الدافئ.....78
غزة: الضحية تقلب معادلة الصدمة والترويع.....80
أعجوبة قرنين.....84
عن احتكار الحقيقة والسلطة.....86
المرحلة القادمة مسؤولية الجميع.....89
عشر ملاحظات في عصر الثورات.....91

هارد لك (*) يا شباب 96
عامان على محاولا التغيير في العالم العربي 99
فاشية إسلامية؟ 102
عن الحداثة 104
عن معايير حقوق الإنسان 107
الليبرالية: ما لها وما عليها 110
الديمقراطية وفرضها بالقوة 112
عن التاريخ 115
العدالة الاجتماعية ونهاية التاريخ 118
الديمقراطية والإسلام: متعارضان؟ 121
700 قناة في زمن احتكار السلطة 126
أدوار الصحافة: الحاجة إلى اليقظة 128
الإعلام: عندما تكون الحقيقة بين الضحايا 131
عصر الكمبيوتر 134
الحضاريون والقيم المزيفة 136

عـود نـديات

لا تزال الياسمينة على باب الدار 140
عـود الـنــد والعامية 143
عـود الـنــد للشابات أيضا 145
شركاء في الترويج للثقافة الراقية 147
لا للنسخ واللصق 149
لا يزال العود مشتعلا 151
ثلاث سنوات من النشر الثقافي الراقي 153
من أجل ارتقاء جماعي 155

عن المواهب ودعمها 157
الصداقة في الشرق والغرب 159
قرار العام الجديد 161
عـود الـنــد تبدأ عامها الخامس 163
خمس سنوات من **عـود الـنــد**: مقارنة 165
عـود الـنــد تبدأ عامها السادس 167
عـود الـنــد تبدأ سنتها السابعة 169
عـود الـنــد تكمل سنتها السابعة 171

نـصــوص

العودة سائحا 174
رحلة المسافة القصيرة والزمن الطويل 174
العودة سائحا: الجزء الثاني 179
العودة سائحا: الجزء الثالث 182
العودة سائحا: الجزء الرابع 186
قهوة عربية بكثير من الهيل 189
مكتبة البيرة في خدمة المعرفة 192
هوامش ومراجع 194
إصدارات **عـود الـنــد** 197

مقدمة النسخة الرقمية

صدرت الطبعة الورقية الأولى من هذا الكتاب في عام 2016 احتفاء بمناسبة إكمال مجلة **عـود الـنـد** الثقافية عشر سنوات من النشر الشهري المنتظم. مـثّـل صدور **عـود الـنـد** في عام 2006 ميلاد مجلة رقمية تضاهي جودتها أرقى المجلات الورقية في ذلك الوقت وقبله. في ذلك الحين كان الاستخفاف بالنشر الرقمي منتشرا، ولم يكن النشر الرقمي يأخذ نمط المجلة الدورية، بل كان معتمدا على النشر في المواقع المتجددة دائما والمنتديات.

خالفت **عـود الـنـد** هذه الأنماط المنافية للنشر المتسم بالجودة، فاستفادت من ميزات النشر الرقمي لإصدار مجلة دورية تصدر في موعد محدد كل شهر وتطبق معايير جودة، مثل مراجعة النصوص قبل نشرها، واعتماد سياسة نشر الجديد والحصري.

رغم أن **عـود الـنـد** تحولت بعد عقد من النشر الشهري إلى مجلة فصلية تصدر أربع مرات في السنة، إلا أن الجودة التي عرفت بها ظلت السمة المميزة لها. ولا تزال مستمرة في الصدور، وهذا إنجاز كبير بالنظر إلى أن هذه المجلة مبادرة فردية وصدرت بانتظام تحسدها عليه المؤسسات.

سأكرر القول هنا ما سبق أن قلته مرات عدة، وهي أن المفاضلة بين الورقي والرقمي مفاضلة عقيمة، وبعد أن اكتسح وباء كورونا العالم وشل

الحركة فيه نحو عامين، يخطئ من يواصل الحديث عن ثنائية رقمي/ورقي. حتى بعد عود الحياة كما عرفناها قبل الوباء، لن يتراجع استخدام التكنولوجيا في حياتنا اليومية في مختلف مجالاتها. وما كان ممكنا من قبل، مثل عدم استخدام الهاتف الذكي، أصبح غير ممكن بعد أن أصبح جهازا لا غنى عنه للتواصل مع المؤسسات الرسمية والمالية وغيرهما.

شهدت الشعوب العربية خلال السنوات التي مرت منذ صدور الطبعة الورقية في عام 2016 تطورات فاقت الخيال في رداءتها، ففي الولايات المتحدة فاز دونالد ترمب في انتخابات الرئاسة، خلافا لتوقعات وسائل الإعلام واستطلاعات الرأي الأميركية. ولم يدخر ترمب جهدا في فرض أمر واقع على صعيد القضية الفلسطينية، فقرر نقل السفارة الأميركية إلى مدينة القدس المحتلة، وتم الترويج لما سمي «صفقة القرن»، وجهرت مجموعة من الدول العربية بنيتها على إقامة علاقات طبيعية مع إسرائيل، وفعلت ذلك رسميا.

في المقابل قدم الشعب الفلسطيني أمثلة جديدة على الإبداع النضالي، فالقدس شهدت انتفاضات شعبية مثيرة للإعجاب دفاعا عن المسجد الأقصى والبيوت الفلسطينية المهددة بالمصادرة في حي الشيخ جراح. وقُدم لنضال المقدسيين الدعم العملي من المقاومة الفلسطينية المسلحة المتمركزة في غزة، فتعرضت تل أبيب لقصف صاروخي متكرر رغم تعرض قطاع غزة لعدوان إسرائيلي استهدف تدمير المباني السكنية والتي تستخدمها المؤسسات.

عندما صدرت **عـود الـنــد** في عام 2006، كان ثمة أمل في أن تتحسن الأوضاع في الدول العربية فلا تعود مسألة تمتع المواطنين بالحريات الأساسية مسألة تخيف الممسكين بالحكم. وتعزز هذا الأمل عندما شهدت مجموعة من الدول العربية في 2011/2010 مجموعة من التحركات الجماهيرية المطالبة بالتغيير فحققت نجاحا مؤقتا في كل من تونس ومصر.

لكن الثورة المضادة لم تتأخر في القيام بهجمة مضادة وأعادت الأوضاع إلى أسوا مما كانت عليه، إما بالتدخل المباشر من الجيش، أو من خلال عملية تبدو ديمقراطية إجرائيا، ولكنها من حيث الجوهر لا صلة لها بالديمقراطية.

لم يعد من الواقعي الحديث عن أمل في تطور الأوضاع الثقافية طالما الدول العربية تفتقر إلى الحريات الأساسية، فالتطور الثقافي هو نتيجة للتطور السياسي والفكري. مع ذلك، ورغم التفكير في التوقف في إصدار **عـود الـنــد** بعد خمسة عشر عاما من النشر، تراجعت عن هذا القرار، فالحاجة زادت للمنابر الثقافية المستقلة ماديا وفكريا.

مع أطيب التحيات

د. عدلي الهواري

لندن

2021/10/10

المقدمة

يتضمن هذا الكتاب مجموعة مختارة من الافتتاحيات والمقالات التي نشرت في مجلة **عـود الـنـد** الثقافية الشهرية، التي صدر عددها الأول في شهر حزيران (يونيو) 2006، وأتمت مع صدور هذا الكتاب عشر سنوات من الصدور المنتظم. تم تقسيم الافتتاحيات إلى أربعة أبواب، الأول فيه 15 افتتاحية عن موضوعات ثقافية مختلفة؛ والثاني فيه 12 افتتاحية عن المزيد من الشؤون الثقافية يبدأ عنوان كل واحدة منها بحرف الجر «عـن».

أما الباب الثالث فهو الأكبر، وفيه أربعة أقسام: الأول يضم افتتاحيات ذات علاقة بفلسطين، وقطاع غزة المحاصر تحديدا. والثاني فيه افتتاحيات ذات علاقة بمحاولات التغيير الجماهيري التي اندلعت في بعض الدول العربية في أواخر عام 2010 وأوائل 2011. والثالث يضم افتتاحيات تطرح وتناقش قضايا فكرية. والقسم الرابع في هذا الباب يضم افتتاحيات ذات علاقة بالصحافة. الباب الرابع خاص بـ **عـود الـنـد**، أي يضم افتتاحيات كانت المجلة موضوعها، إما بشكل مباشر، أو غير مباشر.

إضافة إلى الافـتـتاحيات، هناك بضع مواد أخرى نشرت في **عـود الـنـد**، وضعت بعضها ضمن الباب الأقرب إليها، وهناك ثلاثة نصوص لم أضعها ضمن أي من الأبواب الأربعة لاختلاف الموضوع. تتميز أغلبية المواد بأنها قصيرة، ولكنها مكثفة، علما أن الكتابة القصيرة ليست أسهل من الطويلة، وطبعا لكل مقام مقال. بعض المقالات يملأ صفحة واحدة فقط، وبعض آخر لا يتجاوز

صفحتين. ولكن بعض المواد تملأ ثلاث صفحات، وهناك بحث ونص تجاوزا هذا العدد القليل من الصفحات.

ترتيب الموضوعات المنشورة في الكتاب ليس حسب التسلسل الزمني لنشرها في المجلة، ولكني وضعت رقم العدد وتاريخه في نهاية كل موضوع لتسهيل وضعه في السياق الزمني الذي نشر فيه، ما يسهل ربطه بأخبار أو أحداث ذلك الوقت. وعند الإشارة إلى حدث ما، أضفت السنة بين قوسين مستقيمين [--] ليكون السياق الزمني واضحا.

وإذا ذكرت في افتتاحية أو مقالة مرجعا ما، أضع في أسفلها المصدر، أو إشارة فيها توضيح، أو اسم مجلة أو عنوان كتاب. في حال وجود أكثر من مرجع، وخاصة بالإنجليزية، وضعت المراجع في قسم خاص في نهاية القسم يحمل اسم «هوامش ومراجع». الافتتاحيات والمقالات المنشورة في هذا الكتاب نشرت جميعا في السنوات السبع الأولى من عمر المجلة. والأمل أن يتبع هذا الكتاب بآخر يتضمن افتتاحيات ومقالات نشرت في أعداد السنوات 8-10، وسيبدأ العمل على الجزء الثاني بعد فترة وجيزة من صدور الجزء الأول.

وبمناسبة إتمام عشر سنوات من النشر، أود أن أشكر الكاتبات والكتاب الذي شاركوا بالبحوث والمقالات والنصوص المتنوعة؛ والفنانات والفنانين التشكيليين الذي زينت أعمالهم غلاف المجلة؛ والقارئات والقراء الذي تابعوا أعدادها وشاركوا في التعليق على مواد المجلة؛ والصحفيات والصحفيين الذي نشروا أخبار صدور أعدادها المختلفة، أو سلطوا الضوء على تجربتها.

وأشكر الزميلات والزملاء الذين لم يبخلوا عليّ بكلمات التقدير في كل المراحل، الأمر الذي كان يشحذ عزمي على الاستمرار عاما بعد عام.

مع أطيب التحيات

عدلي الهواري

لندن، نيسان (أبريل) 2016

شؤون ثقافية: 1

صدور مجلة عـود الـنــد

هذا هو العدد الأول من المجلة الثقافية الشهرية **عـود الـنــد**. وبه أحيّي القارئ بتحيات عطرة مستخدما صورة لياسمينة حقيقية ترحب على باب الدار بالساكن والمار كما يفعل الياسمين في كثير من البيوت العربية. لن أطيل الكلام في هذه المقدمة، ولن أضيع الوقت في الحديث عن **عـود الـنــد**، فقد آثرت أن يصدر العدد الأول ليكون ناطقا باسم المجلة: فكرتها ومستواها ومحتواها. ويسرني أن يكون في العدد الأول مساهمات متنوعة تبرهن للقراء أن **عـود الـنــد** مجلة جادة، ومفتوحة للكاتب المخضرم وللمبتدئ على حد سواء، ومنبر ثقافي راق.

ولا بد من التأكيد على أن **عـود الـنــد** مجلة وليست منتدى، فـ**عـود الـنــد** لا تشترط التسجيل لقراءة المواد المنشورة فيها أو لإرسال مادة للنشر. ولا تتيح **عـود الـنــد** المجال للتعليق الفوري الذي يحول المنتديات إلى منبر للمجاملات أو المهاترات، ولكنها ترحب بالتعليقات والملاحظات التي ترسل إليها. و**عـود الـنــد** مجلة ثقافية. لن تجد في **عـود الـنــد** مواضيع سياسية أو دينية، فلهذه منابرها الكثيرة. و**عـود الـنــد** ليست موقعا ثقافيا يتجدد كل يوم، بل مجلة تصدر في الأول من كل شهر ليمكن مراجعة النصوص وتهيئتها للنشر لتظهر للقراء في أبهى حللها.

إن كل صفحات **عـود الـنــد** مفتوحة للقارئ الزائر، فأنت الآن كمن يقف أمام المجلات المعروضة على أحد الأرصفة، أو على مدخل مكتبة، ولك أن تتأمل الغلاف، وتقلب صفحات العدد دون قيود. ولك أن تطبع كل الصفحات لتقرأ المحتويات في الوقت الذي يناسبك. وهذه دعوة شخصية لك لإرسال إنتاجك، فإن كنت كاتبا متمرسا، فسوف يتعلم الآخرون منك، وإن كنت مشروع كاتب، أو كاتبا في بداية الطريق، فقد وجدت المنبر الذي سيحيطك بالرعاية ويمكنك من تطوير مقدرتك لتحلق عاليا.

العدد 1: 2006/6

رابع المستحيلات

إذا كان الخل الوفي ثالث المستحيلات، فإن رابعها هو النص الكامل الأوصاف الذي لا يحتاج إلى مرور عبر عملية مراجعة أو تحرير بعد أن ينتهي مؤلفه من كتابته، لأنه واضح المعنى، متماسك المنطق، كل جملة فيه سليمة التركيب، وكل كلمة اختيرت بعناية، وهو خال من الأخطاء النحوية والإملائية، وكل علامات التنقيط مستخدمة فيه استخداما صحيحا.

من الطبيعي أننا -- الكتاب والكاتبات -- حريصون على ما نكتب لأنه جزء منا، ولا يولد أحيانا بسهولة. وما نكتب أيضا يمثلنا، ولا نريد أن يمثلنا سوى كلماتنا. ولكن الواقع يختلف عندما نقرر أن ننشر ما كتبنا، ففي هذه الحالة النص الواضح لكاتبه قد لا يكون كذلك لقارئه. والتناقض في المنطق لا يلاحظه الكاتب كما يلاحظه القارئ، وهكذا. وبالتالي من العادات الحسنة التي يتبعها الكتاب اطلاع غيرهم على ما كتبوا لكي يعلقوا على النص: الجوانب القوية، والضعيفة التي بحاجة إلى تعديل أو حذف.

ودور النشر التي لا تنشر كتاب المؤلف على حسابه تخصص للمؤلف محررا يعمل معه على تهيئة النص للنشر، ولا تخلو كلمة شكر كتبها مؤلف أمضى عاما أو اثنين في تأليف كتابه من قائمة طويلة من الأسماء لأشخاص علقوا على النص قبل نشره. وبين المشكورين المحرر الذي عمل معه المؤلف.

إن العلاقة بين المؤلف والناشر والمحرر علاقة تعاونية، وهي مفيدة للنص والمؤلف وسمعة دار النشر. وإخضاع النصوص لعملية تحرير ليس انتقاصا منها، أو طعنا في مقدرة مؤلفها. إنها إجراء طبيعي، لأن النص الكامل الأوصاف رابع المستحيلات. ومثلما هناك كتاب جيدون هناك أيضا محررون جيدون، ينالون الشكر والثناء من مؤلفين على مستويات عالية من الثقافة والمناصب الأكاديمية. تلك هي النظرة الصحيحة للكتابة والنشر.

العدد 20: 2008/1

اللغة العربية على طريق الانقراض؟

نسمع من حين لآخر تنبؤات بأن اللغة العربية سوف تنقرض، فاللغات المحكية في واد والفصحى في آخر، والإنترنت رسخت اللغة الإنجليزية كلغة عالمية، واللغة العربية لم تعد تصلح للتعبير. ولأن بعض الخبراء في اللغات هم من يقول ذلك، فلا بد أن تكون التنبؤات صحيحة.

يخطئ من يظن أن المتحدثين بالإنجليزية في دول كبريطانيا والولايات المتحدة واستراليا يتحدثون لغة واحدة هي الإنجليزية الفصحى، وأنهم جميعا ملمون بقواعد النحو الانجليزي، ولا يخطئون في كتابة الكلمات، ومهمتهم أيسر لأن اللغة الإنجليزية خالية من الهمزة. يعرف من يعيش في دول مثل هذه أن اللغة التي يتحدث بها الناس في البيوت والشوارع ليس «فصحى»، وبينهم كثيرون لا يلمون بالنحو والإملاء، ولديهم من الظواهر التي نظن أنها مقتصرة على حال العربية.

اللغة الإنجليزية واسعة الانتشار ولا شك، وزاد انتشارها عندما جاءت الإنترنت لأن الحروف المستخدمة فيها كانت في البداية الحروف الإنجليزية، ولكن سرعان ما أصبح للغات الأخرى مكان على الإنترنت، بما في ذلك العربية. وبفضل الإنترنت والقنوات الفضائية أصبح وصول العربية إلى كل بقاع العالم أمرا يسيرا، ولا يعود المهاجر العربي مضطرا لبذل جهد كبير للبحث عن مادة

بالعربية كي لا ينسى لغته. فالإنترنت ساعدت العربية على الانتشار، لا على الانحسار.

يقال أحيانا إن التعبير عن النفس بالإنجليزية يكون بدقة أكبر من العربية. الأمر يعتمد على ماذا يريد أن يقول الإنسان. إذا أردنا أن نقول في وصف شيء ما «رائع»، لا مشكلة هنا: كلمة رائع تعبر بدقة. أما إذا أردنا أن نصف الشيء بأنه «كول»، تقع مشكلة، فكلمة «كول» ليست عربية، وإذا ترجمت إلى «بارد» يكون لها معنى سلبي. فمن المسؤول عن هذه الإشكالية: اللغة العربية أم نحن، نتيجة ميلنا لاستخدام عبارات يستخدمها متحدثو لغات أخرى؟

وبالنسبة للمصطلحات العلمية المشتقة من اللاتينية وغيرها، يخطئ من يظن أنها مصطلحات سهلة على متحدثي الإنجليزية الأصليين، فاستخدام لغة متخصصة في مجال ما عند الحديث إلى غير متخصصين محل انتقاد، والاتجاه المتنامي الآن لاستخدام لغة واضحة وبسيطة.

لا أحد ينكر أهمية تعلم لغات أجنبية، ولكن أن يصبح تعلم اللغة الإنجليزية والوصول إلى مستوى معين من المهارة شرطا من شروط التخرج من جامعات عربية فهو مطلب مجحف بحق الطالب وبحق اللغة العربية.

قبل أن نوجه اللوم إلى اللغة العربية والحديث عن انحسارها والتنبؤ بانقراضها فلنسأل أنفسنا: ماذا فعلنا من اجل التمكن من لغتنا العربية الجميلة؟

العدد 22: 2008/3

الأعمال الأدبية والمحرمات

كثيرا ما نقرأ إشادات بأعمال أدبية تشير إلى تناول هذا العمل أو ذاك أحد المواضيع التي يقال لنا إن الحديث عنها مصنف في باب المحرمات أو الممنوعات، وتظهر كثيرا كلمتا تابو وتابوهات بدل محرم ومحرمات.

الدين، والجنس، وإلى حد أقل بعض جوانب السياسة، في زعم الكثيرين على رأس قائمة المحرمات. وهناك وصفة ربما مضمونة النتيجة لمن يريد أن يزيد فرص اشتهار روايته أو شعره أو فيلمه، وهي الخوض في أحد هذه المحرمات، وخاصة الدين.

وكنا نلاحظ هذه الإشادات عند التعريف بأعمال مترجمة من العربية إلى الإنجليزية، فيجيء في معرض التعريف بالرواية المترجمة أن فلانا تحدث في تابو الدين، وأن علّانة تحدثت عن تابو الجنس. ولكن العدوى انتقلت إلى الناشرين والنقاد العرب عند الحديث عن رواية جديدة.

نحن مع حرية الرأي وحرية التعبير وكل الأشكال الأخرى من الحرية. ولكن هذا لا يمنع القول إن الأعمال الإبداعية، روايات وغيرها، المتعلقة بالأديان تحديدا، لن تغير من الواقع شيئا، فالأمر متعلق بمعتقدات لن يغيرها من اعتنقها نتيجة لرواية محبوكة جيدا أو رديئة، سواء تعلق الأمر بالإسلام أم بدين غيره.

إضافة إلى ذلك، الهروب إلى الأعمال الإبداعية التي يفترض أنها من نسج الخيال ليس الطريقة الصحيحة لمحاولة كتابة تاريخ جديد، أو دحض رواية تاريخية مركزية في دين ما، وليس من الجرأة الأدبية في شيء أن تكون الغاية ذلك، ثم بعد ضجة ما يزعم المؤلف أو المؤلفة أن العمل من وحي الخيال.

إن الترويج للأعمال الأدبية على أساس خوضها في المحرمات صار يجعلنا نشك في جودة العمل الأدبي، ولا نعتبر مؤلفي ومؤلفات هذه الأعمال ممن يتحلون بقدر أكبر من الشجاعة من غيرهم من الناس، فالحديث عن المحرمات المزعومة شائع بين الناس على مر العصور. الناس يتناقشون دائما في أمور دينية وجنسية وسياسية «محرمة»، وبالتالي يفتقر إلى الكثير من الدقة الحديث عن ريادة وجرأة في الخوض في المحرمات وغير ذلك من مزاعم غايتها الترويج أكثر من أن تكون وصفا صادقا للواقع.

ونخشى أن يكون من نتائج كثرة الترويج لمواضيع مرتبطة بالمحرمات المزعومة تضييق الخناق على المبدعين الذين يكتبون في موضوعات أخرى، وأن يبخس حق هؤلاء. ويعلم المهتمون بالثقافة أن تعدد الأصوات والأذواق في غاية الأهمية، حتى لا يصبح صوت أو خطاب ثقافي ما أحاديا أو مهيمنا، ولذا نرجوكم أن تبحثوا لنا عن معايير أخرى للإشادة بالأعمال الأدبية غير معيار الخوض في المحرمات.

العدد 35: 2009/4

الترجمة والأوهام

ثمة أوهام لدى المترجمين والمترجمات والمؤلفين والمؤلفات ملخصها أن الترجمة جسر للتفاهم بين الشعوب، ومفتاح للشهرة عالميا بالنسبة للمؤلف/ة.

من ضمن الأوهام أن القارئ غير العربي سيفهم الأوضاع في السعودية إذا قرأ النسخة المترجمة إلى الإنجليزية من «مدن الملح» لعبد الرحمن منيف، وأن رواية «الزيني بركات» لجمال الغيطاني هي عن مرحلة الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر مع أن أحداثها تدور في عصر سبق حكمه بقرون، أو أن الرواية الفلانية تعكس واقع المرأة العربية أو الخليجية أو دولة عربية ما.

لكن الملمين بشؤون الترجمة يعرفون أن للترجمة مشكلاتها وقضاياها، فعدا ما يضيع من المعنى عند الترجمة من لغة إلى أخرى، هناك قضايا من قبيل السوق الصغيرة للأعمال الأدبية المترجمة، إذ يكاد الاهتمام بها ينحصر في إطار أكاديمي، وكثير من الأعمال المترجمة يكون له مقدمة طويلة من أكاديمي ما قبل أن يصل القارئ إلى النص.

وهناك انتقادات لما تختاره دور النشر من أعمال لترجمتها، فبالإضافة إلى كونها اختيارات محدودة، هناك من يعتقد أن الاختيار يميل نحو الأعمال التي ترسم أو ترسخ صورة نمطية عن مجتمع ما.

ثمة هروب من واقع الأدب العربي عند الحديث عن ترجمة أعمال كاتب

أو كاتبة ما أو شاعر أو شاعرة ما إلى لغات أخرى، فإذا كان المؤلف بالكاد يبيع ألف نسخة من الكتاب بالعربية، فمن شبه المؤكد أن مبيعات كتابه المترجم لن تتجاوز هذا العدد. في حالات قليلة جدا حققت بعض الأعمال المترجمة من العربية عددا أعلى من المبيعات، ولكن هذه الحالات هي الاستثناء، ونجاحها في تحقيق ذلك ليس راجعا بالضرورة إلى المستوى الأدبي للعمل المترجم.

العدد 30: 2008/1

الرواية العربية: البحث عن جمهور في الغرب

للجوائز فوائد من بينها تسليط الأضواء على المبدعين والمبدعات، سواء في الأدب أو الفن أو المجالات الأخرى، وحصولهم على تقدير معنوي أولا، ومادي ثانيا، وعلى اعتراف بجودة العمل الفائز. وقد كثرت الجوائز الأدبية في الدول العربية، وبعضها سخي في ما يقدم كمكافئة مالية. لكن المؤكد أن هذه الجوائز، رغم فوائدها، لم تغير كثيرا في واقع الأدب العربي، فالأعمال لا تزال تبيع أعدادا متواضعة من النسخ، ولا يمكن لكثير منها الدخول إلى الأسواق العربية بحرية.

وقد دخلت ميدان الجوائز التي تمنح للروايات العربية جائزة بريطانية، تشتهر باسم بوكر [2007]، وهذه الجائزة تبدأ مرحلتها الأولى بتلقي ترشيحات، يتم من بينها اختيار لائحة تعرف باللائحة القصيرة، ومن الروايات الست المدرجة على اللائحة القصيرة يتم اختيار العمل الفائز بالجائزة. جائزة بوكر تمنح مبلغا من المال لأصحاب الأعمال التي يتم اختيارها للائحة القصيرة، وتترجم هذه الأعمال إلى الإنجليزية. ويحصل العمل الفائز بالجائزة على مبلغ أكبر ويترجم إلى الإنجليزية أيضا.

إذا كانت الجوائز العربية لم تفلح في تغيير واقع الأدب العربي، فمن غير المرجح أن تنجح جائزة بوكر في فعل ذلك، فالأمر لا يتعلق بمال، أو

نقص في الأعـمال الأدبية المترجـمة، وبدلا من إيجـاد حـلول لهـذا الواقـع يتم تجاهـله، وإعـطاء الانطباع بأن البحث عـن قـراء للأدب العـربي في الغرب سـوف يخدمه ويطوره.

لا يزال هناك افتراض خاطئ أن كل عمل يترجم سيكون ناجحا تجاريا. ولا يبدو أن هناك اهتماما بمعرفة عدد النسخ التي تباع من الأعمال المترجمة. والافتراض الخاطئ الآخر أن ما ينال إعجاب القارئ العربي سينال إعجاب قارئ النص المترجم.

عندما تصبح ترجمة الروايات العربية إلى الإنجليزية أحد الحوافز للمشاركة في جائزة، يصبح من المحتمل بقوة أيضا أن يتغير الجمهور الذي يستهدفه المبدع، فبدلا من جمهور عربي اللغة والثقافة، يصبح الجمهور المستهدف حقا جمهورا يجيد الإنجليزية عامة ويعيش في الدول الغربية خاصة.

العدد 28: 2008/9

عبرة من سحب جائزة

خبر سحب جائزة الشيخ زايد للكتاب من متلقيها، الناقد الجزائري حفناوي بعلي، خبر قديم وليس موضوع هذه الكلمة. كان سيمكن المؤلف الاحتفاظ بالجائزة لو أنه أحسن توثيق الأفكار والآراء والمعلومات الواردة في الكتاب، فعندئذ لا يمكن الاعتراض على الجائزة لاختلاف الرأي على قيمة وأهمية الكتاب، فهذه مسألة يختلف الناس عليها دائما.

هناك كفاءات كثيرة في العالم العربي، وهناك قدر كبير من الإبداع، ولكن هناك مشكلة واسعة الانتشار، وهي عدم اكتراث الكتاب والكاتبات والناشرين والناشرات، والباحثين والباحثات (على المستويات الجامعية الثلاثة) بأساسيات الكتابة، وعلى رأسها إجادة أحكام الطباعة (الكتابة باليد نادرة هذه الأيام)، وعدم اهتمام باستخدام علامات التنقيط، أو استخدامها للزينة، لا للدور الذي تؤديه كل علامة، من نقطة وفاصلة وغيرهما من علامات.

دقق النظر في كثير مما هو منشور ورقيا أو إلكترونيا ستجد فاصلة قبلها فراغ، وستجد نقطه ليس بعدها فراغ، وستجد حرف واو العطف منفصلا عن الكلمة التي تليه، وهناك أكثر من علامة سؤال في مكان واحد، وهناك تزيين للنص بنقاط ثنائية وثلاثية وأكثر، حسب ما يحلو للكاتب/ة.

وهناك عدم إلمام عند كثير من الباحثين والباحثات بأساليب توثيق المعلومات ومصادرها، علما بأن هناك أكثر من أسلوب، وقد تطلب الجامعة

من طلبتها كتابة بحث ما وفق أسلوب معين، وكذلك الأمر بالنسبة للهيئات التي تعنى بنشر البحوث.

لأني كنت ألمس عدم الاكتراث بأحكام الطباعة وعلامات التنقيط، وعدم الإلمام بأساليب التوثيق، وضعت منذ العدد الأول معلومات أساسية عن أحكام الطباعة وعلامات التنقيط، وبعد أشهر أضفت معلومات أساسية عن أساليب التوثيق. وهذه المعلومات الأساسية تنشر كل شهر، فلا يضطر الراغب في الاطلاع عليها للبحث عنها في عدد قديم. ولكني أقول آسفا إن من يرجع إليها قبل إرسال مادته للنشر فئة قليلة، ونتيجة ذلك أن الكثير من الوقت الذي يبذل لإصدار عدد جديد تستهلكه عمليات وضع النصوص والبحوث في حال تراعي أحكام الطباعة وعلامات التنقيط وأحد أساليب التوثيق.

من لا يصدق أهمية ممارسة كل هذه الأساسيات أمامه الآن الدليل القاطع على أهميتها. قد تخسر جائزتك إذا أهملت التوثيق. قد تخسر في التنافس على وظيفة. قد تخسر ترقية. عندما تكتب وتنشر كما يحلو لك، فإنك تقدم الدليل الملموس، ولكن ليس على مقدرتك فحسب. هناك أساسيات إن أغفلتها تنقلب دليلا ضدك. لا تبخل على نفسك ببذل جهد إضافي. أحكام الطباعة وعلامات التنقيط وتوثيق البحوث من أساسيات الكتابة. هي البداية الصحيحة على طريق الكتابة.

العدد 54: 2010/12

قراءة الكتب والقراءة الإلكترونية: مقارنة

نُشرت قبل شهر تقريبا نتائجُ استطلاع أجراه مركز أبحاث تابع لياهو/مكتوب عن حال القراءة في العالم العربي بمناسبة اليوم العالمي للكتاب الذي صادف يوم 3 آذار (مارس) 2011. تشير النتائج إلى أن القراءة ضعيفة في العالم العربي، وأن القراءة في الأردن ولبنان والجزائر هي الأقل في العالم العربي، وأن ثلث الشباب الذين تقل أعمارهم عن خمس وعشرين سنة لا يقرأون كتبا إلا نادرا.

مشكلة ضعف القراءة ليست مقتصرة على العالم العربي، ولذا لم يأت استطلاع ياهو/مكتوب بجديد، فالمناسبة ابتدعت لتشجيع قراءة الكتاب. في بريطانيا، مثلا، نفذت مبادرة تمثلت في توزيع مليون كتاب مجانا.

هل يختلف الأمر بالنسبة للقراءة عموما باستخدام الإنترنت؟ ليس لدي دراسة أستطيع من خلالها التعميم، ولكن لدي معلومات عامة وأخرى محددة توفرها لي تجربة نشر **عـود الـنــد**. تشير معلومات التسويق باستخدام الإنترنت إلى أن نسبة فتح الرسائل الإلكترونية متدنية، وفي أحسن الحالات تبلغ 15%. تجربة **عـود الـنــد** تؤكد أن نسبة فتح رسائل الإعلان عن صدور عدد جديد متدنية فعلا.

بعد أن يفتح الرسالةَ مستقبلُها، هناك من يضغط على وصلة للذهاب إلى موقع الجهة المرسلة، ولكن الاهتمام ينتهي هناك. وهذا أيضا تؤكده تجربة

عـود الـنــد، فهناك من يلقي نظرة على غلاف المجلة ويكتفي بذلك. الشركات الساعية إلى بيع منتجات تقيس نجاح حملة رسائلها التسويقية بالطلبات التي تحصل عليها بعد فتح الرسائل وزيارة الموقع. **عـود الـنــد** لا تبيع شيئا، بل تقدم خدمة ثقافية على أساس غير تجاري أو ربحي، وتهدف في المقام الأول إلى الترويج إلى ثقافة راقية بالعربية، وتوفير المنبر الذي يلتقي فيه الكتاب والقراء.

ماذا عن عادات القراءة إذن؟ بعد تجاوز كل المراحل أعلاه نأتي إلى الذي قرأ فعلا. هناك من يقرأ نصا أو اثنين ويغادر. من يتجاوز صفحة الغلاف ولا يطيل البقاء في تصفح مواد المجلة لا يمكن اتهامه بعدم حب القراءة، فقد تكون المواد المنشورة لا تلبي ذوقه، ولذا قد يقرأ أكثر في عدد آخر.

بعض من يقرأ يعجب بما قرأ. هناك من يعبر عن رأيه في رسالة إلى الكاتب/ة أو بتعليق عام، وهذه أقلية. الأغلبية الساحقة من القراء لا تعلق، ولا يمكن الحكم هل أعجبوا بما قرأوا أم لا. بين هذه الأغلبية من يكوّن رأيا جيدا عن المجلة، فيقرر أن يرسل مادة للنشر. ربما يفسر هذا استمرار جذب **عـود الـنــد** لكتاب جدد في كل عدد تقريبا.

بالنسبة لضعف القراءة في دول عربية أكثر من غيرها، تجربة **عـود الـنــد** لا تتفق مع ما جاء في استطلاع ياهو/مكتوب. لدى **عـود الـنــد** نسبة عالية من القراء في الدول الثلاث المتهمة بنقص القراءة: الأردن ولبنان والجزائر. ولسبب لا يزال مجهولا كانت نسبة قراء **عـود الـنــد** في السودان عالية، ولكنها انخفضت. أما عن الشباب والقراءة فقد صدرت **عـود الـنــد** في الأصل لتشجيع الشباب على الكتابة السليمة والقراءة، وكانت ترويسة المجلة تتضمن عبارة «للشباب من مختلف الأعمار». وبعد فترة أزيحت العبارة لأن المجلة كانت ولا تزال مفتوحة للجميع.

الشباب وغير الشباب الآن في سفينة تنقلها التقنية المتغيرة بسرعة من مكان إلى آخر دون أن نعرف وجهتها. وأعتقد أن سبل التغلب على ظاهرة

العزوف عن القراءة أمر لا يمكن تحقيقه بوصفة سحرية، وربما مجرد الحديث عن وجود ضعف في القراءة حديث لا جدوى منه، فهناك على الدوام من يحب القراءة ومن لا يحبها. والآن، وبعد اكتساح الوسائل الإلكترونية لكل مجالات الحياة، تغيرت عادات القراءة. في الماضي كان المسافر في وسائل المواصلات العامة يشغل نفسه بكتاب أو مجلة أو صحيفة. الآن تجد الكثيرين يستخدمون الهاتف الجوال للحديث دون توقف أحيانا.

مع ذلك أفكر في كيف يمكن للمجلة أن تشجع عددا أكبر على تجاوز الصفحة الأولى. أحد الخيارات المطروحة تغيير التصميم الحالي، وخاصة صفحة الغلاف التي أعرف أن لها معجبين سيستاؤون لو تم الاستغناء عنها. أمام الجميع فرصة الآن للاطلاع على تصميم بديل، لا يزال في طور الدراسة والتجريب. أرحب بكل رأي يردني في هذا الشأن، فمع أني ناشر المجلة، إلا أنني لا أنشرها لنفسي، ولا يمكن أن تستمر في الصدور بدون المساهمات التي تتلقاها (أكثر من خمس عشرة مساهمة في هذا العدد [58: 2011/4])، وبدون وجود جمهور يحب القراءة. التغيير ومداه سيكون مبنيا على اقتراحاتكم. وحبذا طبعا لو تلقيت عونا في التنفيذ ممن يملك المهارات التقنية.

العدد 58: 2011/4

دراويش محمود

ثارت ضجة أثناء شهر رمضان [2011] حول مسلسل تلفزيوني عن حياة الشاعر الفلسطيني الراحل محمود درويش، وبلغت حد المطالبة بوقف عرضه. المسلسل ليس موضوع هذه الكلمة، فلست من متابعي المسلسلات لا في رمضان ولا في الشهور الأخرى.

موضوع كلمتي ظاهرة يشترك فيها مثقفون، نقاد وشعراء وآخرون، عرفوا محمود درويش شخصيا، وآخرون كثر من محبيه وشعره. تتميز الظاهرة بالمبالغة الشديدة في الحديث عن عبقرية محمود درويش الشعرية، واعتباره حالة استثنائية لم تُشهد قبله وقد لا تكرر بعده.

الظاهرة ليست جديدة، ففي مصر مثلا، تم التعامل مع نجيب محفوظ على أساس أنه حالة استثنائية، خاصة بعد حصوله على جائزة نوبل، ولم يعد أحد يستطيع أن يقول شيئا ناقدا لأعماله. وذات مرة قالت الروائية المصرية ميرال الطحاوي إن روايات نجيب محفوظ المترجمة لا تحقق مبيعات كبيرة، فتعرضت إلى هجوم وصمها بقلة الأدب.

وبالنسبة لمحمود درويش، بدأت هذه الظاهرة قبل رحيله. ومنذ وفاته علت أكثر نغمة العبقرية الاستثنائية، وهي مستمرة دون فتور على ما يبدو.

الشيء الغائب في الحديث عن محمود درويش نصفه الآخر، وأقصد بذلك الجانب السياسي، فقد تولى الرجل مناصب لها بعد سياسي، أهمها عضوية

اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية. ولذا تبقى الكتابة عن محمود درويش ناقصة إذا لم تتطرق إلى هذا الجانب.

ذات يوم رسم ناجي العلي، رسام الكاريكاتير الفلسطيني الذي اغتيل في لندن، رسما كاريكاتيريا ناقدا لمحمود درويش بعد تصريحات له لم ترق ناجي العلي، وكتب ناجي على لسان شخصية في الرسم: «محمود درويش». وفي عامية أهل بلاد الشام الشخص الدرويش هو الشخص البسيط. وحسب الروايات المنسوبة إلى ناجي العلي (ومتوفرة على الإنترنت) لم يستسغ محمود درويش هذا النقد، وتلقى ناجي مكالمة غاضبة من محمود.

في رأيي أن ظاهرة الإفراط في إبداء الإعجاب بشاعر/ة أو روائي/ة أو خلافه لا تؤكد عظمة المحتفى به، بل تدل على عدم عمق في الوضع الثقافي عامة، فالبيئة الثقافية التي لا تنجب سوى شاعر أو روائي استثنائي واحد، بيئة ليست خصبة.

عندما يبلغ الإعجاب بشخص إلى حد اعتباره حالة استثنائية فريدة، نصبح إزاء تقييم غير واقعي ولا يعتد به من الناحية العلمية والموضوعية. ومع أن المثقفين كثيرا ما يذكرونا بأهمية التفكير النقدي، فإنهم أيضا كثيرا ما يتخلون عن ممارسته.

العدد 63: 2011/9

الجوائز والتغاضي عن الأخطاء الفادحة

يوم الأربعاء، 11 كانون الثاني (يناير) 2012، أعلنت لجنة تحكيم الجائزة العالمية للرواية العربية في مؤتمر صحفي بالقاهرة الروايات التي بلغت مرحلة «القائمة القصيرة» أي تلك التي سيتم اختيار إحداها للفوز بالجائزة. وينطوي بلوغ هذه المرحلة على الحصول على عشرة آلاف دولار، أي أن بلوغها يعني مكسبا ماليا إضافة إلى المعنوي.

وجاء في أخبار المؤتمر الصحفي أن اللجنة عبرت عن «استيائها الشديد لما وجدته من أخطاء لغوية ومطبعية في الروايات العربية، التي تم ترشيحها للجائزة هذه الدورة». وجاء في الأخبار نقلا عن عضو لجنة التحكيم مودي بيطار: «إن لجنة التحكيم تغاضت عن هذه الأخطاء، محملة المسؤولية لدور النشر العربية». وورد في الأخبار أيضا أن الروائي المصري يوسف زيدان حمل المسؤولية للكتاب وليس للناشرين.

يمكن للمرء أن يسهب في تحليل هذا الخبر ودلالاته، ولكن الإسهاب ليس من طبعي، خاصة في كلمة العدد. ولذا سأمر بإيجاز على بعض الدلالات.

الثقافة العربية تتضرر من منح جوائز لروايات فيها أخطاء فادحة، فذلك يشجع الكاتبات والكتاب على التهاون في امتلاك مهارات الكتابة بلغة عربية سليمة واستخدام أحكام الطباعة وعلامات التنقيط استخداما صحيحا. ويشجع

أيضا دور النشر على التهاون في نشر الجيد، وتطبيق معايير جودة تشمل عدم نشر نص قبل تدقيقه لغويا.

للتغاضي عن الأخطاء الفادحة انعكاس سلبي على مصداقية أعضاء لجنة التحكيم، فذلك يدعو إلى التساؤل عما إذا كانوا يتغاضون عن الأخطاء الفادحة في الحكم على الأعمال الأدبية خارج سياق هذه الجائزة، وإن لم يفعلوا ذلك في الماضي، سوف يطالبون بالتغاضي بعد أن سمحوا لأنفسهم بفعل ذلك في سياق الجائزة العالمية للرواية العربية.

وبالنسبة للمسؤولية عن الأخطاء الفادحة، الكاتب أم الناشر، فليس سرا أن الكثير من دور النشر في العالم العربي تنشر لمن يريد النص الذي يريد مقابل مبلغ معين من المال. يوم كانت الكتابة تعتمد على القلم والورقة، كانت دار النشر هي المسؤولة عن الأخطاء الطباعية، بالنظر إلى أن النص كان ينقل من الورق إلى حروف مصفوفة. أما في عصر الكتابة باستخدام الحاسوب، فقد أصبح الناشر يلجأ إلى النسخ واللصق، ولذا كل ما في النص من أخطاء هي أخطاء الكاتب/ة. ومع ذلك لا عذر للناشر الكسول الذي ينشر نصا دون تدقيق، فحتى التدقيق الإملائي والنحوي أصبح ممكنا باستخدام برامج حاسوب، ويستحسن طبعا أن يتم ذلك من قبل شخص ملم باللغة العربية.

هناك حالة إنكار لوجود مشكلة واسعة الانتشار في العالم العربي عندما يتعلق الأمر بضرورة الكتابة بلغة عربية سليمة تراعي أحكام الطباعة وعلامات التنقيط مثلما تراعي أحكام النحو والإملاء، وقد يكون من الأدق وصفها بحالة استهتار.

الثقافة العربية لن ترقى بالجوائز فقط، وبالتأكيد لن ترقي بمساعدة جوائز تتغاضى عن الأخطاء الفادحة. هناك حاجة للاعتراف بوجود مشكلة وبذل الجهد اللازم لحلها، بدل هروب الراغبين في الكتابة من مواجهتها إلى النشر على حساب الكاتب/ة، أو النشر في المواقع التي لا تدقق النصوص، أو فتح مدونات أو صفحات على فيسبوك.

لا يمكن أن يكون الكاتب جادا في مشروعه الكتابي إذا لم يكن في حوزته بالإضافة إلى الأقلام والحبر والورق أو الحاسوب أربعة أو خمسة من المراجع عن النحو وتصريف الأفعال والإملاء وأحكام الطباعة وتوثيق البحوث. وفي عصر الإنترنت كل ما تريده من معلومات تضعه محركات البحث أمام العينين، ولذا لا عذر لكاتب أو ناشر في هذا الأمر.

العدد 68: 2012/2

الإعجاب الإجباري

ردت سلمى الخضراء الجيوسي، الناقدة والمشرفة على مشروع ضخم للترجمة والتعريف بالأدب العربي عرف بـ «بروتا»، ردا هادئا على الانتقادات التي وجهت إليها بعيد نشر أخبار جاء فيها أنها قالت «أنا التي أعطيت نجيب محفوظ جائزة نوبل، أنا من كتبت عنه تقريرا بناء على طلب الجائزة، وقلت حينها إن محفوظ هو من أرسى قواعد الرواية العربية»، ولكنها تقول أيضا إن محفوظ «ليس ممتعا إطلاقا». نشر التصريح الأصلي الذي تناقلته الأخبار في جريدة «عُمان» (ملحق «شرفات» الثقافي) بتاريخ 21 شباط (فبراير) 2012. أما الرد الهادئ فقد نشر في صحيفة «السفير» اللبنانية بتاريخ 20 آذار (مارس) 2012.

ما يهمني في هذا الكلمة أن أشير إلى ظاهرة ذكرتني بها هذه الضجة، وهي ظاهرة الإعجاب الإجباري بشخصية أدبية شهيرة، خاصة إذا حققت في رأي محبيها مكانة «العالمية» إما بالفوز بجائزة نوبل أو بغيرها.

ويبدو أن عددا كبيرا من المثقفين والقراء في العالم العربي قبلوا بوصاية المؤسسات والأفراد بالغرب على تقييم جودة الأعمال الأدبية العربية، ولذا هناك سعي إلى الحصول على شهادة جودة من جهة أو شخصية غربية، تشهر بعد الحصول عليها في وجه من يعبر عن رأيه الشخصي المختلف.

وعلى الرغم من وجود فوائد عدة للجوائز، إلا أن دورها سلبي عند اعتبارها المقياس الأهم للجودة أو عند تحويلها إلى وسيلة لمصادرة حق القارئ في جعل ذائقته الحكم على ما يقرأ.

جائزة نوبل على سبيل المثال لن يحصل عليها عربي كل عام، فهل من المعقول أن نواصل انتظار لجنة نوبل لتعطف على الأدب العربي والأدباء العرب وتقدم الجائزة مرة أخرى لشخصية عربية؟ كل عام تقريبا يتكرر انتظار كثير من العرب حصول شخصية عربية على جائزة نوبل، وهذه حالة تثير الشفقة، وفيها شيء من عقدة الشعور بالنقص تجاه كل ما هو أجنبي، بما في ذلك أمور لا يمكن أن يكون أجنبي الحَـكَـم الأفضل في شأنها، وعلى رأسها الأدب العربي.

إذا لم يكن القارئ العربي هو الحكم على جودة ما يقرأ من أعمال بلغته فإننا إزاء وضع مشوه لن يساعد على تطور الأدب العربي ورقيه، فمن المفارقات المحزنة أن الكتاب العرب الذي يشكون من قلة ما يشترى من مؤلفاتهم يهربون إلى الأمام بالسعي إلى الحصول على قراء في الغرب عن طريق الترجمة.

من حق أي إنسان أن يعجب بأدب نجيب محفوظ كله أو بعضه، ومن حق أي إنسان أيضا أن يفضل أدب حنا مينة أو عبد الرحمن منيف أو الطاهر وطار أو سحر خليفة أو غادة السمان أو أحلام مستغانمي أو غيرهم. وينطبق المبدأ على الشعر أيضا، فقد يحب أحد محمود درويش، ويفضل آخر سميح القاسم، أو أمل دنقل، أو نزار قباني، أو نازك الملائكة أو فدوى طوقان، أو أي شاعر آخر شهير أو مغمور، فالإجماع على الإعجاب بشخصية أدبية واحدة غير ممكن وليس صحيا.

العدد 70: 2012/4

الوجه البشع لحكم القانون

يفترض أن مبدأ حكم القانون صيغة إنسانية أسمى في حكم الناس، وتنظيم العلاقة بين البشر، وبين الحاكمين والمحكومين، ويجعل الجميع سواسية أمام القانون. ولكن المبدأ المثالي يطبق في الواقع بنسبة معينة، تعلو أو تتدنى حسب عوامل كثيرة. وثمة قول يعتبر القانون امتدادا للسياسة، وهو قول أجد فيه الكثير من الصواب.

لكن القانون ليس موضوع هذه الكلمة إلا من زاوية استخدامه للحد من حرية النقد والتعبير في الوسطين الثقافي والأكاديمي، فقد جاء في الأنباء أن المؤسسة الناشرة لإحدى الدوريات الأميركية التي تعنى بالفن (*) هُددت برفع دعوى تشهير إثر نشر مراجعة لثلاثة كتب عن الفن الفلسطيني كتبها (أي المراجعة) جوزيف مسعد، الأستاذ في جامعة كولومبيا في نيو يورك.

تناولت المراجعة ثلاثة كتب لكل من الفنان الفلسطيني كمال بلاطة المقيم حاليا في فرنسا، والفنانة الفلسطينية سامية حلبي، المقيمة في الولايات المتحدة، وغانيت انكوري، الأستاذة في الجامعة العبرية بالقدس. وقد أشاد جوزيف مسعد في المراجعة بكتاب كمال بلاطة، خاصة رجوعه في الكتاب إلى القرن السابع عشر في إطار حديثة عن أصول الفن الفلسطيني. وانتقد غانيت انكوري وكتابها الذي وجد فيه نقلا عن أفكار كمال بلاطة.

وقد هُددت المؤسسة الناشرة للدورية برفع دعوى تشهير عليها في المحاكم البريطانية، فقررت بعد دراسة أفضل السبل للتعامل مع الموضوع أن

تتوصل إلى تسوية تشمل نشر اعتذار في العدد التالي من الدورية. وقالت إن مداولاتها حول الأمر أخذت بعين الاعتبار القدرة المالية التي تمكنها من مواصلة تقديم خدماتها وبرامجها. وقد تم سحب الجزء المتعلق بغانيت انكوري من المراجعة المنشورة بصيغة إلكترونية.

وتذكر تلك الحالة بدعوى الذم والقدح التي رفعها على دار الآداب في لبنان محامو فخري كريم، صاحب دار المدى للنشر، وأحد مستشاري الرئيس العراقي، إثر نشر رئيس تحرير مجلة «الآداب» سماح إدريس افتتاحية بعنوان «نقد الوعي 'النقدي': كردستان-العراق نموذجا».

هذان مثالان فقط على كيف يمكن استخدام القانون ليكون وسيلة لتضييق الحريات في الوسطين الثقافي والأكاديمي، وإنهاك مؤسسة صحفية أو أكاديمية أو دار نشر بالجرجرة إلى المحاكم، وجعلها تنفق مواردها المالية المحدودة في معركة قضائية تستنزف مالا، ويكون الطرف المحدود الموارد خاسرا حتى لو كسب القضية.

لا يحتاج الإنسان إلى كلمة طويلة للتعرف على الوجه الآخر البشع لحكم القانون، فالحريات المفقودة في الكثير من الدول مصادرة بقوانين. والقانون على أهميته لتحقيق العدالة، ليس دائما الوسيلة التي تعيد الحق إلى صاحبه. وبدل أن نرى القانون يصون الحقوق ويحمي الحريات ويوسع نطاقاتها، صار حكم القانون تعبيرا مجازيا يقصد به مصادرة الحريات حتى في الوسطين الثقافي والأكاديمي.

(*): اسم الدورية (Art Journal). عدد خريف 2007.

العدد 26: 2008/7

الفيلم الصامت والنشر الورقي

«الفنان» فيلم فرنسي فاز بمجموعة جوائز عام 2011. أعد هذا الفيلم غير الملون على طريقة الأفلام الصامتة، كما كانت الحال قبول اكتشاف إمكانية تسجيل الصوت ومرافقته للصورة. ويحكي الفيلم من خلال قصة حب مسيرة انتقال السينما من الفيلم الصامت إلى الناطق، ودور غير الأميركيين في قطاع السينما في الولايات المتحدة.

كان البطل في أيام الفيلم الصامت يجذب أعدادا غفيرة من المشاهدين عندما يعرض له فيلم. ومع تطور التقنيات في ذلك الحين، بدأت الأفلام الناطقة بالظهور، وتحولت راقصة في أفلام البطل الصامتة إلى نجمة في الأفلام الناطقة. يصر البطل على أن الفيلم الصامت هو الفن، ولكن أفلامه الصامتة صارت تفشل لأنه لم يعد أحد يقبل على مشاهدتها.

الفيلم الناطق غيّر المواصفات المطلوبة في الممثل/ة، ففي الصامت لم تكن لغة أو لهجة الممثل/ة أمرا مهما، سواء أكانت إنجليزية أم فرنسية أم ألمانية أم عربية. ولكن عندما أصبح الفيلم بالصوت، صارت اللغة مهمة. وفي الفيلم الصامت لم يكن حسن الصوت والإلقاء مهما، بينما في الفيلم الناطق صار ذلك مهما.

في زمننا هذا، نادرا ما يصنع فيلم صامت، فقد اعتاد المشاهد على الفيلم الناطق. وفيلم «الفنان» صدم بعض المشاهدين عندما اكتشفوا أنه صامت، فغادروا دور السينما وطالبوا بثمن التذاكر. أشير إلى هذا الفيلم لأن حكايته تمثل أيضا المفاضلة بين النشر الورقي والإلكتروني، فقد ظلت هناك قناعة واسعة

الانتشار بأن الورقي هو الجيد، والإلكتروني هو الرديء. ولكن كما حدث للفيلم الصامت بدأ التطور التقني يفرض نفسه على النشر، سواء أكان نشر الصحف أم المجلات أم الكتب.

من ناحية الكلفة، لا مجال للمقارنة بين كلفة الورقي والإلكتروني. ومن ناحية الوصول إلى جمهور أكبر لا يمكن للورقي أن ينافس الإلكتروني دون كلفة باهظة. وهناك أيضا التفاعلية بأكثر من معنى، أحدها تكبير حجم الحروف ليناسب القارئ، وهذه ما لا يمكن فعله في كتاب ورقي. أما في المواقع الإلكترونية فهناك التفاعل الفوري من خلال التعليقات.

الآن بعد انتشار أجهزة الهاتف الجوالة المتطورة، وأجهزة الحاسوب اللوحية، وأجهزة القراءة الإلكترونية، صار من الممكن استخدام أحد هذه الأجهزة للقراءة وأنت في الحافلة أو في الطائرة. والقارئ النهم يستطيع وضع مجموعة كتب على جهازه بدل أن يحمل كتابا واحدا في حقيبته اليدوية.

هذا تقدم تقني فرض نفسه على الجميع، مثلما فرضت تقنية تسجيل الصوت ومرافقته الصورة إلى تحول الأفلام من صامتة إلى ناطقة.

صحيفة «كرستيان سيانس مونيتور» الأميركية قررت عام 2008 وقف الصدور ورقيا، واكتفت بالنشر إلكترونيا. مجلة «نيوزويك» انسحبت من حلبة الورقي مع نهاية عام 2012. ومع نهاية شهر كانون الثاني (يناير) 2013، أعلنت مجلة «الآداب» التوقف عن الصدور بعد ستين عاما من النشر، ولكنها أعلنت عن النية على العودة بصيغة الكرتونية.

جودة ما ينشر لا تعتمد على نشره في صيغة ورقية أو إلكترونية رقمية، فليس كل ما نشرته دور النشر قبل ظهور النشر الإلكتروني كان جيدا. الجودة ستبقى معتمدة على المعايير التي يطبقها الناشر ومدى تمكن الكاتب/ة من اللغة والكتابة بأسلوب جميل. في هذا يتساوى الورقي والإلكتروني.

العدد 81: 2013/3

هل الأدب العربي (لا يزال) محظور(ا)؟

عنوان هذه الكلمة يجب أن يقرأ بطريقتين. الأولى: هل الأدب العربي محظور؟ كما قال إدوارد سعيد عام 1990. والثانية: إذا كان كذلك، هل الأدب العربي لا يزال محظورا بعد مرور أكثر من عشرين سنة على ذلك القول؟

خلفية الموضوع أن إدوارد سعيد كتب عام 1990 مقالة عنوانها «الأدب المحظور» في مجلة «ذا نيشن» الأميركية (1)، وقال فيها إن أحد الناشرين التجاريين طلب منه ترشيح عدد من الروايات من دول العالم الثالث لترجمتها، فاقترح عليه إدوارد سعيد بعض الروايات، وكان على رأس القائمة روايتان لنجيب محفوظ (قبل بضع سنوات من فوزه بجائزة نوبل). وعندما استفسر إدوارد سعيد عن مصير الروايات المقترحة، قال له الناشر إن «اللغة العربية مثيرة للجدل».

ثمة انطباعات متناقضة عن ترجمة الأدب العربي خاصة، والآداب الأخرى عامة، إلى الإنجليزية تحديدا، فهي الأوسع انتشارا في العالم. وهناك تنظيرات في هذا الشأن من الباحثين في مجال دراسات الترجمة، وانطباعات ربما لا تزال مستمرة بأن ما يتم اختياره للترجمة يكون من فئات معينة تنقل صورا نمطية، أو تركز على إساءة معاملة المرأة، أو أن الاختيار يتم لأسباب سياسة كالترويج للسلام بين العرب والإسرائيليين، أو يتم استبعاد تلك التي تركز على معاناة الشعب الفلسطيني.

أمضيت أكثر من سنة في النصف الأول من العقد الماضي [2004-2005] في البحث عن الأعمال الأدبية العربية المترجمة إلى اللغة الإنجليزية، محاولا معرفة أنواع الأعمال التي تم اختيارها للترجمة، ومحاولا أيضا البحث عن قاسم مشترك في اختيار مواد للترجمة وإهمال أخرى (2). أظهر البحث وجود دور رئيسي للجامعات في الترجمة والنشر، وليس لدور النشر التجارية الكبرى. وأحيانا تتم ترجمة مجموعة أعمال ضمن سلسلة لها فكرة مشتركة، كأن تكون الروايات من تأليف كاتبات.

قائمة الأعمال الأدبية التي ترجمت من العربية إلى الإنجليزية تتضمن الشعر والروايات. لا يجد الباحث كل الأسماء أو الأعمال التي قد يرى أنها تستحق الترجمة. أما بالنسبة للأسماء الشهيرة، كنجيب محفوظ وحنا مينة وعبد الرحمن منيف، فإن نجيب محفوظ أصبح محل اهتمام كبير بعد فوزه بجائزة نوبل، وأعمال مينة ومنيف لم تكن غائبة، ولكن المترجم منها قليل. وسيجد الباحث أيضا ترجمة لبعض أشعار محمود درويش، وأعمال غسان كنفاني.

دار النشر التجارية، بنغوين، أعادت نشر ترجمة لرواية الطيب صالح «موسم الهجرة إلى الشمال». وهذه الرواية تحديدا اكتسبت شهرة إضافية لإمكانية تصنيفها كأدب أفريقي، الأمر الذي وسع دائرة الاهتمام بها. ولا شك في أن دور النشر التجارية تسعى إلى اغتنام الفرص للترجمة والنشر. من تلك الصدف رواية «كم كانت السماء قريبة!» للروائية العراقية بـتول خضيري، وكانت روايتها الأولى، ولكنها وجدت طريقها إلى الترجمة ونشرتها دار بانثيون عام 2001، مستفيدة من فرصة تزامن ظهور الرواية مع الاهتمام العالمي الشديد بالعراق.

تبقى ملاحظة إدوارد سعيد صحيحة إلى حد كبير إذا حصرت في إطار زمنها وفي سياق دور النشر التجارية الكبرى. ولكن إذا حاول المرء التعميم بأن يقول إن الأدب العربي محظور بصرف النظر عن الناشر، فالقول عند إذن

لا يصمد أمام التمحيص. ولكن لو افترضنا أن الأدب العربي كان محظورا في التسعينات وما قبلها، فهل ظل الوضع على حاله منذ ذلك الحين؟ لا أملك إجابة معتمدة على جرد للأعمال التي ترجمت منذ ذلك الحين، والسؤال مطروح على بساط البحث، ولا أظن أنه سيمكن تقديم إجابة شافية، فبعض الأدلة تؤيده، وأخرى تناقضه.

الاهتمام بترجمة الأعمال الأدبية العربية أصبح مشروعا تتبناه الجائز السنوية التي بدأت عملها عام 2008 باسم جائزة بوكر العربية، وأصبحت تعرف بعد ذلك باسم الجائزة العالمية للرواية العربية. وبالإضافة إلى المكافأة المالية التي يحصل عليها الفائزون، يفترض أن تتم ترجمة الأعمال الفائزة.

رغم ذلك، تبقى حقائق أخرى لا يسلط الضوء عليها كثيرا، وهي أن سوق الأعمال الأدبية المترجمة في الدول الغربية ليست كبيرة، إلا إذا كان المؤلف شهيرا جدا، من أمثال غابرييل غارسيا ماركيز.

العدد 82: 2103/4

رحيل الطاهر وطار وغازي القصيبي

رحل في شهر واحد مبدعان شهيران أحدهما الروائي الجزائري الطاهر وطار في المغرب العربي، والآخر الشاعر السعودي غازي القصيبي في المشرق العربي.

أسعدني قبل خمسة أشهر [2010/5] أن تتمكن **عـود الـنــد** من الإسهام في جهود تكريم الروائي الطاهر وطار وهو حي يرزق من خلال نشر ملف كانت مادته الرئيسة تقريرا وصورا خاصة من الجزائر. ومن المؤسف أن نتحدث عنه في هذا العدد [51: 2010/9] وقد رحل عن عالمنا بعد شهور قليلة من التكريم.

كَتبَ وسيكتبُ كثيرون عن الطاهر وطار بعد رحيله، ولكن المسألة ليست في كمّ ما يكتب، بل في التوقيت والمبادرة، فقد كانت **عـود الـنــد** واحدة من جهات قليلة خارج الجزائر اهتمت بموضوع التكريم قبل أشهر.

وأكتب عن غازي القصيبي لأنه رجل يستحق كلمة حق، علما بأني لم أره يوما في حياتي، ومعرفتي به مقتصرة على ما قرأت له وعنه. وليس صدفة تركيزي عليه كشاعر، رغم أنه مارس السياسة من خلال تولي مناصب وزارية ودبلوماسية.

في مطلع حياته كشاعر كان القصيبي شاعرا رومانسيا يجيد الغزل دون أن يتطرق إلى الجسد كنزار قباني. ومن دواوينه التي لدي «يا فدى ناظريك» (2001). وقد كتب روايات عدة قرأت منها «سعادة السفير» (2003)، ولم

أجدها قوية. وقرأت له كتابه «عن هذا وذاك» (1981)، ونشرت منه مقطعا في العدد الثالث، وكتابه «أزمة الخليج: محاولة للفهم» (1993).

أثناء عمله سفيرا للسعودية في بريطانيا أوقعه شعره في أزمة سياسية ودبلوماسية عام 2002 عندما نشر قصيدة بعنوان «الشهداء»، ففسرها البعض في بريطانيا بأنها مديح للعمليات الفلسطينية الانتحارية، واستبدل بعد فترة بتعيين سفير سعودي آخر.

وكلمة الحق التي أود أقولها موجزها كالآتي.

قبل سنوات عديدة، زارني شاب في لندن بتوصية من صديق لي من أيام الدراسة الثانوية طالبا مني مساعدته على توفير تكاليف علاج أخته التي كانت ترقد في أحد المستشفيات البريطانية بعد إصابتها في حادث سيارة. خطرت لي فكرة طلب تبرعات من مجموعة من الأشخاص الذي فكرت بأسمائهم إما بحكم منصبهم أو لأنهم أغنياء مشهورون. ومن بين الذين كتبت لهم السفير السعودي في بريطانيا آنذاك، الدكتور غازي القصيبي، الذي رد على رسالتي وأرسل شيكا باسم المستشفى كما طلبت، وكذلك فعل رئيس غرفة التجارة العربية البريطانية المرحوم عبد الكريم المدرسي. أما مشاهير الأغنياء فقد وردتني رسائل ممن يعملون لديهم تقول إن لديهم هيئات خيرية محكومة بميزانيات وغير ذلك من كلام لا ضرورة له من شخص لا يريد أن يتبرع.

جدير بالذكر أن بعض كتب القصيبي كانت ممنوعة التداول في السعودية رغم المناصب الرسمية التي تولاها، ورفع المنع قبل فترة وجيزة من وفاته. والطاهر وطار نال تكريما في مرحلة متأخرة من حياته وأثناء صراعه مع المرض.

أتمنى أن يأتي اليوم الذي لا تمنع فيه الكتب في العالم العربي، وأن يكرم المبدع مبكرا في حياته، وأن يعيش كل مواطن معززا مكرما.

العدد 51: 2010/9

شؤون ثقافية 2: عن ...

عن البداوة والأعراب

لا أحد يختار مكان ميلاده. قد يكون مسقط الرأس بساطا في خيمة في صحراء، وقد يكون سريرا في مستشفى من فئة خمسة نجوم. ولا أحد يختار أن يكون ابنا لوالدين ثريين أو فقيرين، أميركيين أم عربيين، هنديين أم برازيليين.

ولكن عندما يشتد العود ويتكون الوعي، ننسى هذه الحقيقة، فيظن الأبيض أنه أفضل من الأسود، ويظن الغربي أنه أفضل من الشرقي، ويظن الثري أنه أفضل من الفقير، وابن الجبل يظن أنه أفضل من ابن الصحراء.

أريد أن أعلق تحديدا على اعتبار الصحراء نقيصة، والبداوة مذمة، إذ يلاحظ اعتبارهما كذلك في كثير من الأحيان.

هل يعيب العالم العربي أن يكون جزء كبير منه صحراويا؟ إذن يعيب الولايات المتحدة أن يكون جزء كبير منها صحراويا، كولايتي نيفادا وأريزونا. ويعيب استراليا كذلك، ومناطق أخرى من العالم. وهل يعيب العرب أنهم ركبوا الجمال يوما؟ لا يعيبهم ذلك طبعا فإذا كان الإنسان العربي الذي عاش في الصحراء وركب الجمال مالكا لهذه اللغة الجميلة، وقادرا على الخروج من الصحراء ونشر لغة ودين في مختلف أرجاء العالم فهذا إنسان يجب أن يتعلم المرء منه شيئا، لا أن يستهان بما أنجز، ولا يحقر نتيجة لمكان ميلاده، أو وسيلة التنقل التي استعملها وناسبت بيئته.

إذا احتاج إنسان إلى إصدار حكم على آخر، فيجب أن يكون الحكم على أساس فعل الآخر. يخطئ من يعمم فيقول «بدو» أو «عربان» أو ما شابه من عبارات تختزل في كلمة واحدة ما لا يمكن ولا يجوز اختزاله.

حتى في عصر التقدم التقني الذي نعيشه لا يجوز لأحد أن يظن أنه أفضل من غيره لأنه يعيش في منطقة أقل تقدما من العالم. هذا الشعور بالتفوق سبب مصائب للبشرية، وخاصة في العصر الحديث. كلنا كبشر سواسية، ويجب أن نرفض أن نعامل الآخرين على أساس أننا أفضل منهم بسبب مال أو مكان ميلاد أو نسب، أو أي سبب آخر. ويجب أن نرفض أن يعاملنا الآخرون على أساس أنهم أفضل منا مهما كان السبب.

العدد 27: 2008/8

عن حب الحياة

من ضمن العبارات المستوردة إلى الثقافة المعولمة في العالم العربي «حب الحياة». لكي نبرهن أننا حضاريون كالغرب نقول ونكرر ونؤكد أننا نحب الحياة. وصار حب الحياة ميزة لفئة من الناس، وعدم حب الحياة تهمة تستخدم ضد أخرى: المسلمون لا يحبون الحياة. الفلسطينيون لا يحبون الحياة. الشيعة لا يحبون الحياة. هذه الفئة أو تلك لا تحب الحياة، أما الفئة التي توجه التهمة لغيرها فهي تحب الحياة، وبالتالي هي متحضرة أكثر، ومتفوقة فكريا على تلك المتهمة بعدم حب الحياة.

غريزيا كل إنسان يحب الحياة، وقليلون هم الذين يضيقون ذرعا بالحياة وينتحرون. أما حب الحياة هكذا وبدون شروط فهو أمر لا يقبله أحد، حتى الغربيون الذين نريد أن نكون حضاريين مثلهم.

حب الحياة مشروط دائما، وأول شروط حب الحياة أن يكون الإنسان حرا، وإلا فلا تناقض بين حب الحياة والعبودية.

لمن يحب أمثلة من الأفلام الأجنبية، وعلى لسان شخصيات يقوم بدورها نجوم، أشير إلى فيلم ربما شاهده بعض قراء هذه الكلمة، عنوانه «بريف هارت» (القلب الشجاع)، الذي يؤدي دور البطولة فيه مل غبسون. الفيلم ينتهي بصيحة «فريدوم» (الحرية) رغم أن مطلقها كان على طاولة التعذيب والموت.

تقول أمثالنا وأغانينا الشعبية: «الموت ولا المذلة». وهذه عبارة لا ينطقها متخلف، بل إنسان يدرك أهمية الحرية في الحياة. وعندما يقول الإنسان ذلك فلا يعني أنه لا يحب الحياة، بل يحب الحياة حرا. وهذا هو الأصل. والتاريخ علمنا أن البشر يتمردون على العبودية التي لا تخفى على أحد حتى وإن لم تتخذ شكل الرق.

ولذا قبل أن يحدثنا أحد عن حب الحياة، نريد أن نرى ما فعل من أجل الحرية. نريد أن يعامل كل الناس على أساس المساواة. نريد أن نرى الإنسان الفلسطيني والعربي والإفريقي وخلافه حرا لا عبدا، ويتمتع بالحرية كأي إنسان في أي مكان في العالم ينعم بالحرية.

العدد 28: 2009/9

عن الهـوية

يثور جدل ساخن أحيانا حول مسألة الهوية في مناطق مختلفة من العالم. وكلما ثار جدل حولها نستمع إلى أحاديث عن نسخة أصلية من الهوية، وأخرى متنافرة معها. وينطبق هذا كثيرا على المهاجرين إلى الدول الغربية. ولكنه يحدث أيضا في الدول العربية، حيث تطل مسألة الهوية برأسها من حين لآخر.

لسبب ما يبدأ الإنسان بالاهتمام بهوية معينة، ويدفعه اعتزازه بها إلى اعتبارها الأهم والأسمى في العالم. ويضيق ذرعا بأخيه الإنسان الذي يبدو متمسكا بهويته التي قد تكون مختلفة حقا أو افتراضا لا أكثر.

في كثير من الحالات لا يكون الإنسان مهتما بتعريف هويته، فهو إنسان أولا وأخيرا، و«كلكم من آدم، وآدم من تراب». ومعروف عن الهوية أنها ليست قالبا له مقاييس محددة. ويمكن أن يكون للإنسان أكثر من هوية حتى داخل بلده. وبعض الهويات اختياري وبعضه يفرضه الواقع، فلو هاجر عربي إلى الصين وحصل على الجنسية وتكلم الصينية كأبناء البلد سيبقى في نظر الكثير من الصينيين ذا هوية مختلفة.

وعندما يندلع الجدل حول الهوية، كثيرا ما تطالب فئات معينة في مجتمع ما بالاندماج أو الانصهار والذوبان في مجتمع الدولة التي تعيش فيها، مع أن ذلك يتحقق ذلك طوعا أحيانا، أو مع تقادم الزمن.

هناك أسلوبان في التعامل مع مسألة الهوية في دول العالم: أحدهما يقبل بتعدد الثقافات، كما في كندا مثلا، وآخر يدعو إلى صهر جميع الثقافات لتشكيل ثقافة/هوية واحدة، كما في الولايات المتحدة.

الواقع الملموس يؤكد أنه مهما بلغت درجة الانصهار والذوبان في مجتمع دولة ما، تحافظ فئات على هويتها/هوياتها الأصلية أو شيء منها. الولايات المتحدة اختارت نظام البوتقة التي ينصهر فيها المهاجرون ويُسْكبون في قالب يخرجون منه أميركيين. ولكن هذا لا يمنع الأميركيين من أصل أيرلندي مثلا من الاحتفال بمناسبة آيرلندية هي يوم القديس باتريك.

وكان يعاب على المواطن الأميركي أن يشار له بأميركي-ألماني أو أميركي-بولندي، ولكن التعبير المتداول منذ سنوات عند الحديث عن المواطنين السود هو الأفارقة الأميركيون، اعترافا بانحدارهم من أصل أفريقي. ومن المحتمل الآن أن يصبح أفريقي أميركي رئيسا للولايات المتحدة.

وثمة دول، بعضها عربية، تسمح بازدواجية الجنسية، وهذا تطبيق عملي قانوني ينطوي على الاعتراف الرسمي بأن للشخص الواحد هويتين وولائين. وعليه فإن الحديث في بلد ما عن ضرورة وجود هوية واحدة ومحاولة فرضها على من يشعر أن له هوية مختلفة أمر بحاجة إلى إعادة النظر فيه والتخلي عنه.

العدد 29: 2008/10

عن ظاهرة تحقير العرب

لا شك في أن هناك أمورا كثيرة في العالم العربي لا تسر البال. ومن الضروري نقدها والعمل على إصلاحها. غير أن نقد الظواهر السلبية شيء، وهجاء عموم العرب أمر مختلف تماما. هجاء العرب صار معزوفة مفضلة لدى كثيرين، فهناك من يقول إن العرب ظاهرة صوتية، وهناك من يقول إن العرب لا يقرأون، وهناك قصيدة شهيرة للشاعر السوري الراحل نزار قباني بعنوان «متى يعلنون وفاة العرب؟»

وهناك من يرى أن الجماهير العربية بليدة لا تتحرك رغم سوء أحوالها. وفي الأيام الأولى من العدوان على غزة [2008/12] كتب أحد المثقفين العرب في الولايات المتحدة يقول إنه يتفق مع رأي الزعيم الفلسطيني الراحل ياسر عرفات في أنه لا أمل يرجى من الجماهير العربية رغم أن هذا المثقف يختلف معه في كل شيء آخر. ولكن الجماهير العربية خرجت، كغيرها، إلى الشوارع استنكارا للعدوان، وتضامنا مع أهالي القطاع.

وفي شهر نيسان/أبريل الماضي [2009]، تعرض العرب للهجاء مرة أخرى من قبل الشاعر السوري علي أحمد سعيد الشهير أكثر بلقب «أدونيس». وعندما ثارت ضجة حول ما قال، كتب مقالة («السفير»: 2009/5/6) أوضح فيها قصده، فقال: «لا أقصد من «الانقراض» انقراض العرب بوصفهم أعداداً

بشرية، بل بوصفهم طاقة خلاّقة تسير في موكب الإنسانية الخلاّقة، وبوصفهم نظاماً في بناء الإنسان، وفي إرساء قيم التقدم والانفتاح، والمشاركة في بناء العالم، وفي خلق حضارة إنسانية، أكثر غنىً وأكثر عدالةً وأكثر إيغالاً في السيطرة على الكون، وفي كشف أسراره».

وأضاف متسائلا: «أفلا يصحّ بهذه الدلالة التي لا يجوز أن تخفى على أي قارئ حقيقيّ أن نقول عن أنفسنا بأننا حضارة تنقرض؟»

هناك مشكلة كبرى في تعريف القارئ الحقيقي، والتساؤل يعني ضمنا أن من لا يتفق مع استنتاج الانقراض ليس قارئا حقيقيا. لا أتفق مع هذا الاستنتاج. ولعله من المفيد التذكير بردود فعل الكثير من المثقفين على كتاب «صدام الحضارات» للأميركي صامويل هنتنغتون. خلاصة النقد الذي وجه لهنتنغتون أن الحضارات ليست محددة الحدود، ولا يمكن وضعها ضمن إطار، فهناك دائما تداخل وتعاون وتواصل.

لا أكتب هنا لأرد على أحد بعينه، وإنما لأعلن رفضي الكامل لهذا المنطق الذي يستخدم كثيرا في أوساط الإعلاميين والمثقفين، فهو منطق سطحي، وفيه نظرة تحقيرية. وأجد أن خير رد على هذا الكلام إعلان الاعتزاز بالعرب وثقافتهم، دون تعصب أو انغلاق. وتعبيرا عن ذلك اخترت للترويسة أعلاه صورة لجمل في صحراء للتذكير بأن الإنسان العربي، وغير العربي، قادر على تغيير نفسه وواقعه، حتى لو جاء من صلب الصحراء، وركب الجمل للتنقل من مكان إلى آخر، وكان التمر مادة غذائه الرئيسية. الإنسان العربي لديه الكثير مما يعتز به، ويمكن أن يقدم للإنسانية الكثير. كفوا عن هجائه.

العدد 37: 2009/6

عن الأبراج العاجية

ثمة أنصاب تذكارية تقام في الساحات العامة يكون بعضها لتكريم شخص ما بوضعه على حصان، وهو والحصان على قاعدة مرتفعة. وهكذا ينظر هذا الشخص على البشر بعليائية، وعلى الناس أن ينظروا إليه من تحت.

كثير من المثقفين والمبدعين يبني لنفسه نصبا من هذا النوع، ليس نصبا من الحجر أو البرونز، ولكنه من ناحيتي تقدير الذات والتعامل مع الآخرين مماثل لنصب راكب الحصان الموضوع على قاعدة مرتفعة وسط ساحة عامة، فهم لا يطرحون التحية إذا راسلوا أحدا، وهم لا يردون على الرسائل إن أنت راسلتهم. أكثر ما هو مسموح لك هو أن تلتقط لنفسك صورة والنصب في الخلفية تأكيدا على أهميته كمعلم ثقافي بارز.

هذه الظاهرة امتداد لعقلية البرج العاجي، فثمة ازدهار في تشييد الأبراج العاجية والتعامل مع الناس من أعاليها. أهلنا يبنون لنا أبراجنا العاجية في أقرب فرصة ممكنة. وسرعان ما تنتقل إلينا الرغبة الشديدة في إكمال بناء البرج العاجي، أو استبداله بواحد أعلى منه: الطبيب/ة، المهندس/ة، الصيدلاني/ة، الصحفي/ة، الأستاذ/ة، الشاعر/ة، الناقد/ة، الروائي/ة، القاص/ة، الفنان/ة، الشيخ/ة، الأثرياء فعلا والذين يكدحون من أجل الثراء. ما أكثر المنشغلين ببناء برج عاجي والتعامل مع غيرهم من عليائه!

عندما نسكن البرج العاجي نصبح أكبر وأهم من أن نتعامل مع أناس «ليسوا من مستوانا». يصبح الطبيب أكبر من أن يتكلم بأدب مع المريض. يصبح الصحفي خبيرا في كل القضايا. نصبح حالات استثنائية: مواهب لم يعرف مثلها من قبل، ذكاء خارق. ويتبخر في داخلنا التواضع والبساطة والشعور بأننا كبشر متساوون، وأننا كلنا من آدم، وآدم من تراب.

العدد 39: 2009/9

عن دور المحرر الثقافي

ينطوي دور المحرر الثقافي (والمحررة الثقافية) بحكم المنصب الوظيفي على واجبات صحفية من قبيل اختيار الأخبار، ومراجعة النصوص وتنقيحها، وإجراء الاتصالات للاستيضاح أو لإجراء مقابلة للنشر، أو تكليف هذه أو ذاك بكتابة موضوع ما.

وفي ممارسة دور المحرر الثقافي، لا يختلف الجانب الصحفي كثيرا عن دور المحرر السياسي أو الاقتصادي أو غيرهما، إلا في اختلاف مجال الاختصاص. وعندما يقوم المحرر الثقافي بتلك الواجبات، يفترض أن يقوم بالدور بمهنية وحيادية، ولا يكون اختيار المواد للنشر على أساس الذوق الشخصي.

والواجبات الصحفية التي يمليها المنصب لا يبطلها كون المحرر الثقافي شاعرا أو روائيا أو ناقدا، فهذا شأن آخر، فقد يكون شاعرا مجيدا، أو روائيا مشهورا، ولكنه إن لم يؤد واجباته كمحرر ثقافي على أكمل وجه، يكون عندئذ محررا مقصرا، خاصة في حق القراء والقارئات.

التفاعل مع الجمهور جزء لا يتجزأ من ممارسة العمل الإعلامي، فهذا الجمهور تريد أن تصل إليه المؤسسة الإعلامية، لكي تؤثر فيه سلبا أو إيجابا، لتغني ثقافته، وترفع من وعيه، أو لتجعله يشتري الصحيفة، أو ليشتري أحد المنتجات التي يعلن عنها، إلى آخره. ولذا لا يجوز للمحرر الثقافي أن يتجاهل

الرسائل والاستفسارات والأخبار، وأن يجعل ذوقه، أو مكانته الكبيرة في عينيه، مصدر قراراته التحريرية/الصحفية.

وإذا أصر المحرر الثقافي على الخلط بين الدورين، المحرر والناقد أو الشاعر أو الروائي، فعندئذ يحق للجمهور أن يتجاهل مؤلفاته القديمة وأن يمتنع عن شراء نسخة من إصداراته الجديدة.

العدد 42: 2009/12

عن عالمية الأدب والفن العربيين

يعتقد كثيرون في الوسطين الفني والثقافي في العالم العربي أن هناك مكانة اسمها العالمية يجب أن يحصل عليها الشعراء أو الروائيون أو الموسيقيون أو الممثلون، إلى آخره. ولذا إذا ترجمت رواية إلى الإنجليزية فهذه خطوة على طريق العالمية، وإذا عرض فيلم عربي في دولة أوروبية فهي أيضا خطوة على طريق العالمية، وإذا أقيم لفنان حفل غنائي في دول غربية فهي خطوة كبرى على طريق العالمية.

لا شك في أن الأفلام السينمائية والموسيقى والرياضة جعلت من بعض الأسماء مشهورة عالميا، ولكن هذه الشهرة على نطاق العالم تستند في مجال السينما إلى قطاع إنتاج أميركي قديم وغني إلى حد غير متوفر لقطاع السينما في أي مكان آخر في العالم. وينطبق الأمر ذاته على قطاع الغناء الذي يؤدي إلى اشتهار مغنين مثل مايكل جاكسون ومادونا وغيرهما. وفي الرياضة، يشتهر اللاعبون وخاصة في مجال كرة القدم، وانضمام اللاعبين إلى الأندية مقابل ملايين عديدة، ومباريات كأس العالم.

ولكن إذا بحثنا عن شهرة مماثلة، أو عالمية مماثلة في مجال الثقافة والأدب، فسنجدها إما صغيرة جدا مقارنة بالمجالات الأخرى، أو غير ممكنة التحقق. وعندما اقرأ أن الروائي الفلاني عالمي، وأن الشاعر العلّاني عالمي، لأن

بعض أعماله ترجمت، أدرك أن هذا الكلام يلقى جزافا، فالأعمال التي تكتب باللغة الإسبانية أو العربية أو اليابانية يجب أن تترجم، وخاصة إلى الإنجليزية، لكي تصبح في متناول جمهور أكبر. ولكن الافتراض الخاطئ أن الجمهور الأكبر سيقبل على قراءة الأعمال الأدبية المترجمة.

ضع نفسك مكان القارئ في بريطانيا أو فرنسا أو الولايات المتحدة أو غيرها من الدول: هل سيختار أن يقرأ لكتاب وكاتبات من بلده أم لا؟ وعند الرغبة في قراءة أدب مترجم، بأي أدب مترجم يجب أن يهتم أولا: العربي؟ الإفريقي؟ الإسباني؟ الياباني؟ الصيني؟ (عدا عن التفرعات العديدة في كل ذلك).

لسنا ضد أن يشتهر الكاتب أو الفنان خارج وطنه، ولكن الكتابة بالعربية تنطوي ضمنا على أن جمهور القراء المستهدف يعرف العربية، وسيكون في أسلوب الكتابة جماليات وصور وأساليب لا يعرفها ولا يستسيغها إلا الذي يعرف العربية.

ولمن يحسن العربية والانجليزية معا اقترح ما يلي: خذ رواية لنجيب محفوظ مثلا واقرأ قسما منها بالعربية، والقسم نفسه باللغة الإنجليزية، أو قسما من رواية كتبت بالإنجليزية. عندئذ أتوقع أن تلاحظ الفرق الشاسع بين أن تقرأ باللغة التي تعرفها وتحكيها وتفكر بها، وتلك التي تتعلمها، مرغما، إما لأن تخصصك الدراسي فرضها عليك، أو تعلمتها لتحسين فرص العمل.

في اعتقادي أن العرب الساعين إلى العالمية يهربون من الواقع، وربما لا يكنون الاحترام لأبناء لغتهم، اعتقادا منهم أن الجمهور في الدول الأخرى، خاصة الغربية، ذو ذوق أرفع. والمشاهير، العالميون، اشتهروا محليا قبل أن يشتهروا عالميا، ولذا فلنركز على الأقربين، الأولى بالاهتمام.

العدد 43: 2010/1

عن الغناء والأدب والجماهير

بين الرسائل الإلكترونية الكثيرة التي يحولها إليك أشخاص تعرفهم، وآخرون لا تعرفهم، وصلتني الشهر الماضي [2010/1] رسالة حوت مقالة منسوبة للروائية الجزائرية، أحلام مستغانمي، تشير فيها إلى اشتهار مغني الراي الجزائري، الشاب خالد، بين عشية وضحاها نتيجة أغنية «دي دي واه»، بينما هي أمضت أربع سنوات في كتابة روايتها «ذاكرة الجسد». (لاحظوا حجم التواضع في المقالة عندما تقول كاتبتها: «كنت قادمة لتوِّي من باريس، وفي حوزتي مخطوط «[ذاكرة] الجسد»، أربعمائة صفحة قضيت أربع سنوات في نحتها جملة جملة، محاوِلة ما استطعت تضمينها نصف قرن من التاريخ النضالي للجزائر، إنقاذاً لماضينا، ورغبة في تعريف العالم العربي إلى أمجادنا وأوجاعنا»).

أختلف مع الذين أعجبوا بالمقالة وحولوها لغيرهم، وأختلف أكثر مع طرح المقالة، فهناك مقارنة غير سليمة بين الفن الغنائي، الراقي وغير الراقي، والأعمال الإبداعية المكتوبة، التي بدورها قد تكون راقية وقد لا تكون، وهناك هجاء للجزائريين والعرب، على افتراض أنهم لم يعودوا يميزون بين الصالح والطالح، وجاهلون بتاريخهم، إلى آخره.

أن يهتم عدد أكبر من الناس بأغنية أكثر من الاهتمام برواية ظاهرة ليست مقتصرة على العرب أو العالم العربي. خذ الولايات المتحدة مثلا ستجد

أن الاهتمام بأغاني مايكل جاكسون ومادونا أكثر من الاهتمام بالروايات. وخذ الهند مثلا، ستجد أن المهتمين بالأفلام ذات الأغاني والرقصات والمناظر الطبيعية الجميلة والنهايات السعيدة أكثر من المهتمين بروايات اروانداتي روي (Arundhati Roy). ومع ذلك، الهند والولايات المتحدة بلدان لديهما أسلحة نووية، ويتمتع الشعبان فيهما بحريات لا تتمتع بها الشعوب العربية.

لا يلام الأميركيون أو الهنود، كما يلام العرب، إذا اختاروا أن يعجبوا بأغنية أو فيلم، وإذا أحجموا عن شراء رواية اجتهد صاحبها في كتابتها أو لم يجتهد. من الممكن أن يشهد المكان الواحد نجاح الفنان والروائي في آن. في الولايات المتحدة يبيع الروائي، دان براون، نسخا كثيرة من رواياته، وينجح مايكل جاكسون ومادونا أيضا، ويبيعان كثيرا من الأسطوانات. وهذا حدث في الماضي في مصر، التي اشتهر فيها مطربون ومطربات كأم كلثوم ونجاة وعبد الحليم حافظ وفريد الأطرش، واشتهر فيها أيضا أدباء كنجيب محفوظ ويوسف إدريس وغيرهما كثيرون.

أدرك تماما أن نسبة القراءة في العالم الغربي أعلى مما هي عليه في العالم العربي، ولكن ذلك لا يرجع لكون الإنسان عربيا، ولا بد من البحث عن أسباب واقعية أخرى، لا اللجوء إلى تفسير تبسيطي استعلائي للأمور.

عند رغبة الإنسان في الاستماع إلى أغان، سيكون هناك وقت لأم كلثوم، وآخر لفيروز، وثالث للشاب خالد، وهكذا. وهذا الإنسان قد يشعر أيضا بالرغبة في قراءة رواية، أو قصة قصيرة، أو مقال سياسي، أو خلافه. هناك تنافس شديد على جذب اهتمام هذا الإنسان. لن يجذبه الأدباء إليهم إذا سخروا من ذائقته أو ذكائه.

ملاحظتي الأخرى على المثقفين الذي يهجون الجماهير العربية بمناسبة وبدون مناسبة هي عدم الانتباه إلى التضحيات التي تقدمها الجماهير من أجل ما تؤمن به من قضايا، كالقضية الفلسطينية مثلا، فالجماهير العربية التي

تهجى كثيرا خرجت إلى الشوارع غاضبة على العدوان الإسرائيلي على غـزة، وتأييدا لشعب غزة المحاصر [2009/2008]. وفي رأيي أن لتصرف الجماهير بطريقة تثير الإعجاب أو الاستنكار صـلة وثيقة بقـادة الجماهير (أو عـدم وجـود قيادة لها تقودها إلى الأفضل).

هناك من يقود الجماهير إلى الاهتمام بالمغنين والمغنيات، والممثلين والممثلات. وهناك أموال كثيرة تنفق على القنوات التلفزيونية والترويج للنجوم والنجمات، وكذلك لعبادة الشخصيات السياسية الحية والراحلة. والمثقفون القلقون من هذه الظاهرة عليهم توجيه النقد إليها بدلا من هجاء الجماهير.

أما رواية «ذاكرة الجسد»، وأختيها «فوضى الحواس» و«عابر سرير» فلي رأي فيها قد أكتبه في أحد الأعداد القادمة.

العدد 45: 2010/3

عن اللغة والتخلف

من بعض ما قرأت في الآونة الأخيرة [2010] جدل قديم متجدد حول مواكبة اللغة العربية للعصر، وأنها حاملة للتخلف والعقلية القمعية وما شابه من سلبيات تلمس في العالم العربي. وذكرني من يحاجّ بذلك ببعض من يزورون بلدا غربيا لبضعة أيام، فيحدثون المقيم فيها منذ سنوات عن عراقة البلد، ورقي ثقافته، ودماثة أهله، ودقة النظام فيه. وإذا رد المقيم إن الوصف ليس بهذه الدقة، يرد الزائر على المقيم بأنه لا يعي ما يقول.

على النحو ذاته نرى من يتقنون بعض الفرنسية أو الإنجليزية أو غيرها من لغات أجنبية، وبعض من لا يتقنون إلا القليل منها، يحاجون بأن اللغة العربية ليست صالحة لهذا الأمر أو ذاك، وغير مواكبة للعصر، وغير ذلك من مزاعم، لا تصمد أمام بعض التمحيص.

ثمة افتراض أن في بريطانيا مثلا لا توجد لغة إنجليزية فصحى، وأخرى دارجة، وكذلك الأمر في فرنسا أو إسبانيا أو ألمانيا. ويعرف المقيم في واحدة من هذه الدول أن هناك فصحى وعامية، ولا يتقن اللغة الفصحى كل أبناء البلد الأصليين.

والافتراض الخاطئ الثاني يفترض أن كل إنجليزي وكل فرنسي وكل ألماني وكل إسباني ملم بلغته، خلافا للعربي الذي لا يتقن لغته، وأن لغته (العربية) عصية على الإتقان.

أما عن مواكبة العلم والاختراعات، فيخطئ من يظن أن الإنسان العادي في الغرب يفهم كل المصطلحات العلمية لأنها مشتقة من جذور لاتينية ولدت منها لغته، فهناك مشكلة يعاني منها غير المختصين بالمصطلحات من كل الأنواع: الطبية والعلمية والمصرفية والتأمينية، وحتى السباكية، فكل مهنة تتبنى مجموعة من المصطلحات لا تكون مألوفة لبقية الجمهور.

والافتراض الآخر أن كل من تعلم قول ميرسي وباردون وثانكس وكول قد علا في سلم الرقي الفكري افتراض خاطئ أيضا، ونظرته للأمور سطحية للغاية. في الدول المتقدمة أيضا هناك تيارات فكرية بعضها تقدمي وبعضها عنصري بغيض، ولو كانت اللغة هي مصدر تبني الفكر وتطوره لوجدنا نوعا واحدا من الفكر في فرنسا أو ألمانيا أو إسبانيا وغيرها من الدول أو الأمم. صحيح أن البلاد العربية وغيرها تعاني من مشكلات كثيرة، ولكن تحميل المسؤولية للغة أمر لا يمت للحل بصلة. وخير دليل على ذلك أن بعض الدول التي استعمرت في الماضي تتكلم الفرنسية والبرتغالية والإسبانية والإنجليزية، ولا تزال أحوالها أحوال دول نامية مثلما هي الحال في العالم العربي.

العدد 50: 2010/8

عن ورثة ابن رشد

أحترم كغيري الفكر والمفكرين، لا جدال في ذلك، فللفكر دور مهم في الحياة وتطورها. ولا شك في أن أحوال العالم العربي بحاجة إلى تطور فكري واجتماعي وعلمي وتقني وخلافه. وألاحظ، كنوع من الإشادة بالمفكر الفلاني أو العلّاني، ربطا له بفكر ابن رشد، وتطور الأمر إلى منح لقب وريث ابن رشد.

ثمة تعامل مع الإنسان العربي لا يحترم ذكاءه، ويعتمد على اختيار شخصية من التاريخ العربي الإسلامي وتقديمها له على أساس أنها النموذج السحري الذي يحتذى به.

الإنسان العربي والمسلم يستطيع أن يتعامل مع الأفكار الجديدة دون محاولة تبسيطها وتغليفها له لتبدو مقبولة بربطها بشخصية ما من التاريخ العربي الإسلامي. لا فرق بين اختيار شخصية أبي ذر الغفاري كممثل لاشتراكية إسلامية، وبين اختيار ابن رشد كشخصية لعقلانية عربية إسلامية. الأولى اختيرت في عصر ازدهار الأفكار والحكومات الاشتراكية، والثانية هي التي تروج حاليا.

حتى عندما يتم اختيار شخصية فذة من التاريخ العربي وتقديمها كدليل على قيمة ما تجسدها هذه الشخصية، ثمة انتقاص من مجمل التاريخ العربي الإسلامي الذي يتعامل البعض معه كتاريخ سلبي عموما ولم تظهر فيه سوى حالات استثنائية محدودة جديرة باستحضارها من التاريخ لتصبح نموذجا يقتدى به.

مع الاحترام الشديد لابن رشد، لا اعتقد أن الحصول على لقب وريث ابن رشد إطراء ما بعده إطراء. هناك مشكلات عديدة في العالم العربي، ثمة إجماع على ذلك، ولكن ما هو الحل؟ أهو بظهور ابن رشد آخر؟ لا يكفي في عصرنا الحالي أن يظهر بطل واحد ليحل كل المشكلات بعبقرية فذة لا تتوفر إلا فيه.

حبذا لو كففنا عن استحضار شخصيات من التاريخ، ولنركز على الموجود حاليا، بعيدا عن ظاهرة «الاستثنائية» بمعنى أن فلانا أو فلانة حالة استثنائية لم يشهد مثلها من قبل ولن تتكرر، سواء في الشعر أو الرواية أو المسرح أو الفكر أو السياسية.

إن الترويج لنموذج شخصية واحدة من التاريخ يكرس، ويعيد إنتاج، ظاهرة سلبية تقع عليها بعض المسؤولية في المشكلات التي يعانيها العالم العربي. كفانا ترويجا لعقلية «نحن بدونك لا نساوي شيئا». يجب أن يكون لدينا، بل لدينا، مئات من أمثال ابن رشد وابن خلدون وأي شخصية أخرى من تاريخنا القديم والحديث.

العدد 53: 2010/11

عن الأدباء والمفكرين

قبل ظهور الإنترنت كانت الصفات التي تطلق على العاملين بالأدب والفكر، كصفة أديب أو مفكر، ليست شائعة كثيرا. وعندما تطلق صفة أديب على طه حسين، مثلا، لا يكون ذلك من باب المجاملة، فالرجل أمضى حياته في ميدان الأدب وله مؤلفات عدة.

وصفة مفكر ربما كانت أقل انتشارا من صفة أديب، ذلك لأن المفكر يتعمق في الأفكار، وينتج فكرا قد يصبح أساسا لفكر قومي أو اشتراكي أو ليبرالي، وخلاف ذلك. والمفكر يصدر كتبا ليست للاستهلاك اليومي والقراءة السريعة في الحافلة على الطريق إلى العمل.

بعد انتشار الإنترنت انتشر أيضا استخدام صفة أديب، ولم تعد هناك حاجة لأن تكون هذه الصفة اعترافا من الآخرين بالجهود الأدبية لمن يحصل على اللقب، بل صارت وصفا يطلقه الشخص على نفسه.

من المؤكد أن صفة الأديب لا يستحقها فقط بعض الأسماء اللامعة من أجيال سابقة، فلكل جيل أدباؤه، ولكن لو نظرنا إلى سجل مؤلفات الكثيرين ممن وهبوا أنفسهم صفة أديب وجودة هذه المؤلفات لوجدنا أن أساس اللقب ليس قويا.

وبعد انتشار الإنترنت والقنوات التلفزيونية الفضائية، زاد أيضا عدد من يشير إلى نفسه بالمفكر. ولكن الملفت للنظر أن بعض المفكرين لهم حضور

متكرر بكثافة في ستوديوهات القنوات الإخبارية، أو حضور متكرر في الصحف على شكل مقال أسبوعي. هاتان الممارستان مناقضتان لسمات المفكر، فعندما يصبح المفكر ضيفا دائما في ستوديو الأخبار ليعلق على أحداث متلاحقة، لا يختلف كثيرا عن الصحفي الذي يعيش على التعليق السريع على الأحداث. والمفكر الذي يكتب رأيا أسبوعيا في أحداث جارية لا يختلف كثيرا عن شخص يمارس مهنة الكتابة فيكتب ما يريد كل أسبوع.

لا يعني الكلام أعلاه أن المفكر يجب ألا يظهر على شاشات التلفزيون أو ألا يكتب في صحيفة. الفرق شاسع بين حضور متكرر بكثافة أو زاوية أسبوعية، وبين حضور متباعد ولكنه عندما يحدث يكون على أهمية عالية، ولا يذهب مفعوله بانتهاء الظهور التلفزيوني. وهذا أيضا ينطبق على «المفكر» الذي يكتب رأيا أسبوعيا، فهو مضطر للكتابة بسرعة، وتضيع بذلك صفة التأمل والتروي والتفكير قبل الكتابة.

وسائل الإعلام ليست بريئة من المبالغة في صفات من يظهرون على الشاشات أو يكتبون في الصحف والمجلات، فهي تريد أن تقول للمشاهد أو القارئ إننا نتعامل مع أناس على مستوى عال، ولكن اختيارها هذا الشخص أو ذاك لا يكون لاعتبارات مهنية دائما.

المشاهد أو المستمع أو القارئ يجب ألا تخيفه الألقاب، ويجب أن يحكم بنفسه على ما يهذر على الشاشة أو في الصحيفة والمجلة. الاستكانة إلى وجود فئة صغيرة من الأدباء والمفكرين والمثقفين ومقابلها جمهور يقتصر دوره على التلقي والإعجاب والتصفيق وصفة لإدامة التخلف الفكري، وترسيخ العلاقة بين الناس وفق ظاهرة الأبراج العاجية، التي تعيش فيها قلة، وتطل من عليائها على الجمهور، وتكون الطلة في كثير من الأحيان مشوبة بالازدراء للجمهور لا مليئة بالحب والتقدير له.

العدد 66: 2011/12

عن الانتماء لقيم

عندما يتعمق الإنسان في مفهوم الانتماء، سيجده فضفاضا كغيره من المفاهيم، ولكنه مفهوم شائع ويولى أهمية كبرى. في بعض الحالات يكون الانتماء على شكل عملي كالانتماء إلى منظمة سياسية أو رابطة مهنية، بمعنى أن يختار الإنسان العضوية فيها، وممارسة ما يترتب على ذلك من حقوق وواجبات.

هناك انتماءات كثيرة رسمية وغير رسمية، بعضها يكون إلزاميا ومطلوبا، وبعض آخر يتم الانتماء إليه بمحض الإرادة.

ثمة تأكيد دائم على أهمية الانتماء، ولكن سياق الأهمية يختلف من شخص لآخر، فقد يكون هناك تأكيد على أهمية الانتماء إلى بني البشر من ذوي البشرة البيضاء، وينطوي ذلك على النظر بعنصرية إلى كل من له لون بشرة مختلف.

أحيانا يطالب الإنسان بالانتماء إلى ثقافة جديدة تشمل أمورا لم يعتد عليها، فالمهاجر العربي أو المسلم في الغرب لا يكون في العادة متقبلا لتناول المشروبات الكحولية وأكل لحم الخنزير. البعض يتجاوز ذلك، ويصبح الأمر عاديا. الأغلبية لا تفعل، وتبقى منتمية إلى هذا الجانب من ثقافتها الأصلية.

ومن ناحية ثانية، رغم سعي الإنسان المهاجر أو اللاجئ للانتماء إلى البيئة الثقافية الجديدة يبقى انتماؤه مرفوضا، رغم الحصول على الجنسية

الفرنسية أو الأميركية أو غيرها، فامتلاكها يعطيه حقوقا قانونية وما يترتب عليها من حقوق أخرى كالحقوق السياسية التي تشمل حق المشاركة في الانتخابات كناخب أو مرشح. ولكن باستثناء حالات قليلة، يكون الانتماء إلى الثقافات الجديدة قانونيا، ويبقى الاجتماعي محدودا. وكثيرا ما يطالب المهاجرون بالاندماج في المجتمعات الجديدة، ويغيب عن مطلقي هذه الدعوات الصد الذي يلقاه المهاجر في محاولته الاندماج.

من الانتماءات الطوعية انتماء الإنسان إلى قيم، ومع أن إيحاء معنى كلمة «قيم» إيجابي إلا أني أود أن اعتبر القيم من نوعين: القيم السلبية، كالجشع والأنانية، والقيم الإيجابية كالأمانة والتواضع. رب قائل يقول: «كيف يمكن وضع الجشع في قائمة القيم؟» السبب أن الجشع قد لا يعتبره ممارسوه قيمة سلبية، فالساعون إلى الثروة بلا حدود يعتبرون ذلك قيمة إيجابية لا سلبية، بينما يراها آخرون سلبية لتحولها من جمع ثروة إلى جشع، ولذا لا يخلو التصنيف من حكم شخصي على ما هو سلبي وإيجابي.

خلال جيل أو اثنين على الأكثر حدث في العالم العربي اختلال في الانتماء إلى القيم، فبعدما كانت القناعة كنز لا يفنى، صار تكديس الأموال بلا حدود غاية. وبعدما كان الطالب يحترم أستاذه ويعمل بمقولة «من علمني حرفا كنت له عبدا» أصبح الأستاذ يتعرض للضرب من الطالب.

وبما أننا اليوم في عصر المطالبة بالحرية والكرامة في العالم العربي يلاحظ أن بعض المطالبين بالحرية لا يرون فيها إلا بعض الحقوق الفردية، كحرية تناول المشروبات الكحولية أو حرية أن يتصور الشخص عاريا وينشر الصور على الملأ. والتبس فهم الحرية على البعض بحيث أنهم نسوا أن البلدان العربية حصلت على الاستقلال بعد تضحيات جسيمة، وما يهمهم الآن هو الاستقلال الشخصي الذي هو في الواقع وهم إذا كان في إطار لا يوفر للجميع الحريات العامة المتعارف عليها ضمن الميثاق العالمي.

وينسى المهتمون بحقوقهم الشخصية أولا، التي تختلف من شخص إلى آخر، أن الحريات الفردية مختلف على حدودها حتى في الدول التي تكفل للفرد عدم التدخل في شؤونه الشخصية، فتعاطي المخدرات مخالف للقانون، وحرية التعري عندما تتحول إلى أفلام جنسية توضع عليها قيود إذا لم تكن ممنوعة.

ثمة قيم تتغير، لا شك في ذلك، وهذا أمر طبيعي وصحي. على سبيل المثال، كان تعليم المرأة أو عملها أمرا غير شائع، أما اليوم فهو شائع جدا. ولكن هناك قيم يجب أن تبقى ثابتة كالصدق والأمانة، والحرص على الحقيقة، وأن تحب لغيرك ما تحب لنفسك. قائمة القيم الإيجابية طويلة، وقد أكون «دقة قديمة» في نظرتي إليها، ولكني أرى حاجة اليوم للتذكير بها، وفي رأيي أن الانتماء لها أعلى درجات الانتماء.

العدد 69: 2012/3

قضايا سياسية وفكرية
وإعلامية

غسان يبتسم

رجال (ونساء) في الشمس

في رواية «رجال في الشمس» لغسان كنفاني يتأخر أبو الخيزران، سائق خزان (صهريج)، في ختم أوراقه على المركز الحدودي بين العراق والكويت نتيجة أحاديث اضطر لتبادلها مع بعض الموظفين عن مغامرات نسائية مزعومة. كان على عجلة من أمره لأن ثلاثة فلسطينيين من أعمار مختلفة مختبئون في الخزان الفارغ المغلق أملا في دخول الكويت سعيا للرزق بعد نكبة 1948. كان الوقت ظهرا ويكاد الحديد يذوب من شدة الحرارة. وبعد عودة أبي الخيزران إلى سيارته الخزان، يكتشف أن الثلاثة قد لقوا حتفهم، ويقرر في البداية أن يدفن كل واحد في قبر على حدة، ثم أن يرمي الجثث في الصحراء، ثم يقرر أن يلقي الجثث في مكب القمامة حتى يراها عمال النظافة ويتم دفن الجثث لاحقا. ويتساءل بعد التخلص من الجثث: «لماذا لم يقرعوا جدار الخزان؟» ورددت الصحراء تساؤله.

أريد لأهالي غزة المحاصرين أن يلاقوا مصير الفلسطينيين الثلاثة في خزان أبي الخيزران: الموت بصمت وخنوع. ولكنهم يوم الأربعاء، 2008/1/23، قرروا الكف عن قرع الجدران وتوجيه نداءات الاستغاثة، وخرجوا كمارد من قمقم، وهدموا جدار الحصار المفروض من جهة الإخوة. وكانت صحراء سيناء سعيدة بهم وبأنهم داسوا على ترابها بدل أن تردد «لماذا لم يقرعوا الجدران؟»

وهكذا، وبعد عقود من صدور رواية «رجال في الشمس» أعاد أهالي غزة كتابة الخاتمة: لقد قرعوا الجدران طويلا، ولكن موظفي المراكز الحدودية وأبوات الخيزران مشغولون في أحاديث عن السلام والمفاوضات والأمن والشرعية، بينما يموت الصغار والكبار في القطاع المحاصر برا وبحرا وجوا. لقد كلت الأيادي من قرع الجدران ولم يستجب أحد، ولذا قرروا هدم الجدار. هذا المصير الذي تستحقه الجدران في فلسطين وغيرها. غسان كنفاني سيرضى بهذه الخاتمة الأجمل لرجال (ونساء) في الشمس.

العدد 21: 2008/2

حضن الإنسانية الدافئ

ثمة أصحاب ضمائر حية في هذا العالم، من كل الجنسيات والأعراق والألوان والأديان، لا تسمح لهم ضمائرهم بقبول الظلم على إخوتهم في الإنسانية بصرف النظر عن دين أو عرق أو جنسية الفئة الواقع عليها الظلم. وقد بلغ الأمر في أصحاب الضمائر الحية حد تسيير أسطول من السفن وركوب المخاطر في محاولة لفك الحصار عن قطاع غزة المحاصر برا وبحر وجوا، ودفع بعضهم أرواحهم ثمنا في هذه المحاولة.

ونذكر قبل رحلة أسطول الحرية المظاهرات التي خرجت في مختلف أنحاء العالم للتنديد بالعدوان الإسرائيلي على قطاع غزة أواخر عام 2008 وأوائل عام 2009. هذان الأمران يؤكدان أن أصحاب الضمائر الحية في العالم لا ينخدعون بتشويه الحقائق، مهما تكرر ذلك في وسائل الإعلام.

هذا الموقف الإنساني من أصحاب الضمائر الحية في العالم تجاه الشعب الفلسطيني يستحق من كل المعنيين بالقضية الفلسطينية موقفا مماثلا ينبذ التعصب القومي والديني، وخاصة في وقت يشهد تزايدا في التعبير العملي عن التأييد للشعب الفلسطيني، متجسدا في خطوات من قبيل مقاطعة المؤسسات الأكاديمية الإسرائيلية، ومطالبة الجامعات في الغرب بسحب استثماراتها في إسرائيل. مثل هذه الخطوات أسهمت في الجهود الهادفة إلى رفع الظلم الواقع

على المواطنين الأصليين في جنوب أفريقيا، وحملت الأقلية البيضاء فيها على التخلي عن نظام التفرقة العنصرية.

يخطئ طبعا من يكتفي بالتعويل على الرأي العام العالمي، أو المجتمع الدولي أو الشرعية الدولية وما شابه من مصطلحات هلامية، ولكن يخطئ أيضا من يستعذب الانغلاق وأن يصرخ «يا وحدنا» عندما لا يجد ما يكفي من الدعم له، والاستنكار للظلم الواقع عليه. ويخطئ من يقنع نفسه بأن كل العالم ضده بسبب دين أو مذهب أو جنسية أو لون، ففي حالات الظلم الجماعي هناك أصحاب ضمائر حية يعملون في حدود الممكن لهم لرفع الظلم عن المظلومين، فينجحون أحيانا، ويخفقون أحيانا أخرى، لأن القوى التي تعمل على إبقاء الوضع القائم وتبريره لا يستهان بها وبما لديها من وسائل مضادة.

العدد 49: 2012/7

غزة: الضحية تقلب معادلة الصدمة والترويع

تعرض مفهوم المقاومة إلى سخرية شديدة منذ اندلاع الانتفاضات في العالم العربي في أواخر عام 2010. جزء من السخرية محق لأن الحديث عن المقاومة كان في كثير من الأحيان كلام حق يراد به باطل. رد فعل المقاومة على العدوان الإسرائيلي على غزة [2012] أعاد الاعتبار والمصداقية لمفهوم المقاومة، لأن الرد لم يكن كلاما خطابيا، ولا وعيدا باختيار الزمان والمكان المناسبين للرد. وأكد الرد أن المقاومة الفعلية تؤدي إلى التفاف جماهيري، وترفع المعنويات، وتحرك المؤيدين للقضية الفلسطينية في مختلف أنحاء العالم.

مقاومة الشعب الخاضع للاحتلال حق مكفول دينيا وقانونيا وإنسانيا. ولكن إسرائيل وأنصارها من الدول، خاصة الغربية التي لم تغادرها الروح الاستعمارية والحس الإمبراطوري، تحاول أن تقنع الشعب الفلسطيني خاصة، والشعوب العربية عامة، بأن إسرائيل حالة استثنائية لا تجوز مقاومتها، ولها الحق في أن تحتل وتضم وتصادر وتدمر وتقتل وتشرد وتنفي وتحاصر كما يناسبها.

عندما غزا الاتحاد السوفييتي أفغانستان عام 1978، بادرت الدول الغربية وغيرها إلى دعم المقاومة الأفغانية، التي تغنى بها حتى الرئيس الأميركي، رونالد ريغان، فقد أشاد بأعضاء وفد أفغاني زار واشنطن بقوله إنهم مقاتلون

من أجل الحرية. وعندما تغير غازي أفغانستان عام 2001، تغير الحديث أيضا عن حق الشعب الأفغاني في المقاومة.

وعلاوة على أن أحد المبادئ التي تستند إليها الأمم المتحدة هو عدم جواز الاستيلاء على الأراضي بالقوة، فإن القانون الدولي لا يجيز العقوبات الجماعية ذات الأثر على حقوق الإنسان. وهذا الأمر ليس رأيي أو تفسيري للقانون الدولي، بل رأي شرحه بالتفصيل القاضي البلجيكي، مارك بوسويت (Marc Bossuyt)، أثناء فترة فرض العقوبات الاقتصادية على العراق في تسعينيات القرن الماضي، وكان ذلك في ورقة قدمها في عام 2000 لاجتماع للجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة[*].

قطاع غزة يتعرض منذ سنوات لعقاب جماعي من خلال حصار بري وبحري وجوي، وشارك في هذا الحصار الإسرائيلي نظام حسني مبارك، الذي أقام جدارا على الجانب المصري الفلسطيني من الحدود، وروج في مصر لكذبة أن أهل غزة سيخرجون من القطاع ويستوطنون في سيناء (ظهرت الكذبة مجددا أثناء العدوان). ولكن أهل غزة المحاصرين هدموا الجدار. وهذا الحدث يجب ألا ينساه من يبحث عن علامات بشرت بانتفاضات الشعوب العربية على الاستبداد.

في عام 1998، جاء إلى العراق مبعوث من الأمم المتحدة اسمه هانز فون سبونيك (Hans von Sponeck). وصرح بعد وصوله إلى بغداد بأنه لم يأت لإدارة العقوبات على العراق. وبعد فترة ليس طويلة اكتشف أن دوره في العراق هو إدارة الحصار، فقدم استقالته، وحذا بذلك حذو دينس هاليداي (Denis Halliday) الذي استقال لسبب مماثل.

إسرائيل تدير حصار قطاع غزة منذ سنوات كما يدار السجن، فكل ما يدخل القطاع أو يخرج منه، بما في ذلك الطعام والشراب والوقود معروف.

ومن لؤم إدارة هذا الحصار أنه محسوب على أساس السعرات الحرارية التي يحتاجها الإنسان لتلافي حالة التضور جوعا. ولا تكتفي إسرائيل بالحصار طبعا، بل تقصف ما تريد وتقتل من تريد في القطاع.

لم تتعلم إسرائيل من التاريخ أن كل محاولتها المعتمدة على الإبهار، والصدمة والترويع، محاولات فاشلة منذ بدء المشروع الاستيطاني في فلسطين، ومرورا بكل المحاولات الأخرى التي تشمل حربي 1948 و1967، والمجازر، واغتيال القادة، واحتلال جنوب لبنان، وغزو بيروت، وقصف المفاعل النووي العراقي، وتهريب اليهود الفلاشا، وتدمير مصنع للسلاح في السودان. كل هذه الأمثلة وغيرها لم تنجح في توجيه ضربة قاصمة ونهائية للمقاومة كفكرة وممارسة، ولم تنجح في إقناع الفلسطينيين والعرب بأن إسرائيل دولة سوبرمانية لا جدوى من مقاومتها.

هذا الفشل تجلى بشكل فاضح لإسرائيل في العدوان على غزة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 2012، فالشعب المحاصر منذ سنوات، الذي لم يلتقط بعد أنفاسه من عدوان 2009/2008، يحتضن مقاومة ردت دون تردد، ووجهت الصواريخ إلى القدس وتل أبيب، فانقلبت معادلة الصدمة والترويع.

أقول كل ما سبق دون أن يغيب عن البال أن غزة وأهلها يدفعون ثمنا غاليا، أو أن رد فعل المقاومة سيؤدي إلى رفع الحصار غدا، أو إلى تحرير فلسطين بعد غد. ولكن تحليل الأمور بهدوء وموضوعية يقود إلى استنتاج حدوث تغيير نوعي في الصراع العربي الإسرائيلي. والفضل في تحقيق هذا التغير يعود للمقاومة، فكرة وممارسة.

ولا أتحدث عن المقاومة بقدسية أو رومانسية، فهي تمر في حالات مد وجزر، وفي بعض الحالات، تنحرف حركات المقاومة عن مبادئها، أو تخطئ فتسيء إلى الشعب إما بالمساومة على حقوقه، أو بإساءة معاملته. لذا، ومع أن

إنجاز المقاومة في غزة لا يستهان به، إلا أنه يجب ألا ينسي أحدا مرحلة ما بعد المعركة، وأنّ غاية المقاومة أنْ يعيش الإنسان بحرية وكرامة.

[*] الورقة (بالإنجليزية) متوفرة على الرابط التالي:

http://www.unhchr.ch/Huridocda/Huridoca.nsf/0/c56876817262a5b2c125695e0050656e/$FILE/G0014092.pdf

العدد 78: 2012/12

أعجوبة قرنين

حرمنا صدور العدد الماضي [32: 2009/1] مبكرا من التعبير عن التضامن مع أهالي غزة والمدافعين عنهم في وجه العدوان الإسرائيلي، الذي كان من نتائجه غير المقصودة تفجير تضامن عربي ودولي كبت طويلا، فخرجت الجماهير في كل مكان من العالم إلى الشوارع للإعراب عن الغضب على المعتدي والتضامن مع المعتدى عليه.

وأسقطت الجماهير العربية تحديدا مقولة تكررت كثيرا تتهمها باللامبالاة إزاء ما يجري حولها ولها، وانحنى الحكام العرب للعاصفة، ففتحوا المجال أمام تقديم التبرعات وغير ذلك من مبادرات ركزت على الجانب الإنساني والإغاثة.

لا يمكن لأحد أن يقلل من حجم الخسائر البشرية والمادية التي أنزلت بغزة وأهاليها. ولكن توفر الحد الأدنى من الموضوعية يفرض على الإنسان أن يرى جانبا مثيرا للإعجاب بصمود ومقاومة أناس عزل محاصرين برا وبحرا وجوا منذ شهور عديدة قبل شن العدوان. وفي المقابل لا يمكن لأحد أن يحترم دولة تستخدم جبروتها ضد أناس حاصرتهم وجوعتهم طويلا.

قضية فلسطين لن تحل في المستقبل القريب، وسيعاد لسنوات عديدة قادمة كلام كثير سمعناه مرارا وتكرارا عن السلام، لكن الشيء المؤكد هو أن

الشعب الفلسطيني يخوض معركة بقاء وتصد منذ مطلع القرن الماضي، ويواجه عدوا تلقى ويتلقى الدعم من إمبراطوريتين. ولم يكف الشعب الفلسطيني عن مفاجأة العالم بصموده ومقاومته وانتفاضاته في كل مرحلة بدا أنه ضعف وأصبح على وشك الاستسلام. ولذلك، في يقيننا أن الشعب الفلسطيني سيعود له وطنه وسيكون حرا فيه.

العدد 33: 2009/2

عن احتكار الحقيقة والسلطة

انتقدت في أكثر من كلمة ظاهرة هجاء الشعوب العربية وتحقيرها واتهامها باتهامات كثيرة من بينها الخنوع. والحقيقة التي يتجاهلها هؤلاء أن الجماهير العربية تحركت في الماضي، وتتحرك في مناسبات كثيرة، ولكن ليس حسب التوقيت الذي يريده المثقف الفلاني، أو المعلق العلّاني، أو هذا السياسي أو ذاك. شيء ما يدفع الجماهير إلى التحرك. ويكذب من يقول إنه يستطيع التنبؤ به.

في تونس كانت الشرارة التي حركت الجماهير إشعال الشاب التونسي، طارق (محمد) بوعزيزي، النار في نفسه احتجاجا على المعاملة التي تعرض لها وهو الذي حاول أن يعيل أسرة دون أن يتسول أو يسرق، فلجأ إلى العمل كبائع متجول. شاب في وضعه يستحق الدعم والتشجيع من الدولة، فهو يحل محلها في رعاية بعض المواطنين.

أذكر من أيام عملي في الإعلام إجابة كانت تتكرر في المقابلات مع مثقفين وسياسيين تونسيين مؤيدين للنظام عند سؤالهم عن سبب عدم السماح لحزب إسلامي الاتجاه بخوض ميدان السياسة. إجابتهم كانت تتلخص في أنهم يعترضون على مبدأ احتكار الحقيقة، لأن المتعارف عليه، وليس بالضرورة صحيحا، أن المتدينين يعتقدون أنهم وحدهم يمتلكون الحقيقة من خلال اعتمادهم على ما تقوله الكتب المقدسة.

الحقيقة لا يمكن احتكارها، حتى لو حاول المتدين أو الماركسي أو الليبرالي أو خلافه أن يفعل ذلك. والمعترضون على مبدأ احتكار الحقيقة يتجاهلون مبدأ احتكار السلطة، فهذا أسوأ، لأن السلطة يمكن احتكارها فعلا باستخدام الجيوش والأجهزة الأمنية. ومن يمتلك السلطة يصطنع حقيقة ويفرضها على الجميع، فكل حاكم عربي اختار لنفسه خطابا رسميا يردده مؤيدوه ووسائل إعلامه، خلاصته أن الشعب يحبه، وأنه بنى البلد الذي يحكم، ولولاه لكان الشعب يتيما.

هناك جشع بلا حدود لدى البعض فيما يتعلق بحب السلطة والمال، ويميل هؤلاء إلى تحويل الناس إلى عبيد سياسيا ومعيشيا. ويتم دائما تحالف مصلحي بين من يملك السلطة ومن يملك المال، فيخدم كل طرف الآخر. ولذا، لا شك في أن احتكار السلطة هو الأرض الخصبة للفساد، وأي احتكار لها باسم قضية كبرى كقضية فلسطين، أو باسم الدين، أو باسم التنمية، ذريعة لا أكثر، أدت وتؤدي دائما إلى الفساد، وزيادة الهوة بين الفئات الحاكمة والثرية الصغيرة، والسواد الأعظم من الشعوب.

لا أعتقد أن الحكام محتكري السلطة يتعلمون من التاريخ شيئا، ولذا بعض الحكام العرب سوف ينزع إلى اللين قليلا، وآخرون سوف يعدون السيناريوهات لكيفية التعامل مع تحرك جماهيري لو حدث في بلدهم. ولا أظن أن الأنظمة العربية سوف تتهاوى تباعا بعد ما جرى في تونس، ولكن أي حاكم عربي يجب أن يتوقع أن يحدث له ما حدث في تونس ودول أوروبا الشرقية إذا واصل ممارسة احتكار السلطة، ومصادرة الحريات، والاهتمام بإعداد قليلة من الأثرياء وإهمال ملايين الفقراء.

هناك الكثير من الباعة المتجولين والفقراء المعدمين في مختلف الدول العربية. على الحكام العرب أن يحرصوا على مساعدة هؤلاء الناس على العيش عيشا كريما، من خلال تأمين المسكن والرعاية الصحية والتعليم، حتى لا يورث

الفقير فقره لأبنائه. ويجب أن يكون للجميع حق التعبير عن الرأي بحرية، وأن تكون السلطة للشعب من خلال نظام سياسي ديمقراطي قائم على عدالة اجتماعية واقتصادية.

في الختام أعود إلى مثال الشاب محمد بوعزيزي لأقول إن هذا الشاب الفقير، الذي سيذكره التاريخ بأنه أزاح جنرالا احتكر الحكم أكثر من عشرين سنة، قدم ردا بليغا على مروجي مقولة حب الحياة دون الالتفات إلى ضرورة أن تكون الحياة التي يجب أن نحبها حياة كريمة، يعيش الناس فيها أحرارا لا عبيدا لدى الحكام وحلفائهم أصحاب الثروات التي لا تجنى دائما بعرق الجبين.

العدد 56: 2011/2

المرحلة القادمة مسؤولية الجميع

في عصر كهذا تشاهد فيه بعينيك صور الجماهير العربية تملأ الساحات والشوارع في أكثر من مدينة وفي أكثر من بلد في آن، يصعب أن تكتب شيئا، فالأفكار تتزاحم في الذهن، وتحتار في اختيار واحدة موضوعا لكلمة كهذه. ولكن هذه اللحظة التاريخية يجب الوقوف عندها حتى ولو لم يحسن الإنسان التعبير.

بعد مرور عقود على ممارسة الديمقراطية في الدول التي تقوم نظمها عليها، كان التحدي الأكبر ولا يزال كيف يمكن شمل المزيد من أفراد الشعب في ممارسة الحق الديمقراطي، وألا يمنعه من ذلك الفقر أو اللون أو الدين. أما في العالم العربي فقد كان الاتجاه نحو منع نشوء ديمقراطية، واحتكار القرارات في يد شخص واحد أو مجموعة صغيرة، والبقاء في الحكم مدى الحياة، وتوريث الحكم حتى في الجمهوريات. لا عجب أن الشعوب ثارت.

ثمة حاجة إلى التنبيه إلى ضرورة تفادي تقسيم الشعب إلى شباب (رجالا ونساء) يجترحون المعجزات، وجيل آخر كثرت الإشارات إليه كجيل الهزيمة أو جيل خايب. هذه أقوال تبالغ في مجاملة الشباب. تذكروا أيها الشباب أن الأجيال الأخرى (شيبا وشبانا، رجالا ونساء) ناضلت بالطرق التي كانت متاحة لها، ولا تلام على عدم النجاح، بل تشكر لها محاولاتها، ويشكر كل من حاول.

لماذا نجحت المحاولات هذه المرة ولم تنجح في الماضي؟ لا أعتقد أن أحدا يملك الإجابة. لا تتشابه المراحل التاريخية ولا تتهيأ في كل وقت الظروف التي

يتحقق فيها النجاح. العالم تغير كثيرا في العقدين الآخرين. لا شك في أن أحد أسباب النجاح الثورة التقنية التي لا تعترف بالحدود، والتي توفر وسائل التعبير لكل من يرغب في ذلك مجانا، والتي قوضت احتكار الحكومات لوسائل الإعلام. ولكن هذا واحد من أسباب كثيرة أتوقع أن تطول قائمتها. ومن المؤكد أيضا أن الشباب نجحوا بعد انضمام مختلف قطاعات الشعب إليهم.

أكبر خطر على محاولات التغيير التفكير فقط في المرحلة الآنية، مرحلة المعركة أو فك الحصار، وعدم التفكير في المرحلة التي تليها. ستكون مأساة أن تخرج الجماهير بأعداد غفيرة وتقدم التضحيات لتنعم بالحرية لفترة وجيزة، أسابيع قليلة، ثم تعود إلى وضعها القديم، وتصبر خمسين عاما آخر أو مئة قبل أن تتحرك من جديد.

مع أن النجاح المتمثل في إزاحة رأس النظام مهم، إلا أنه ليس كافيا إذا بقي جوهر نظام الحكم كما كان. لذلك يجب التركيز على المرحلة القادمة، فنجاحها ضروري لكيلا يضيع نجاح المرحلة الأولى. المرحلة القادمة يجب أن تكون مرحلة العيش في القرن الحادي والعشرين بعقليته. لا توجد في الماضي صيغ أفضل مما يمكن أن يجود به الفكر الحر في الوقت الحاضر أو المستقبل.

والمطلوب في كل الدول العربية، حيث أزيح الحاكم، وحيث بقي، نظم تخدم الشعوب لا تستعبدها، وكل من يدير الحكم فيها يجب أن يفعل ذلك وفق برنامج يحظى بمباركة أغلبية الشعب من خلال انتخابات حرة ونزيهة تتنافس فيها الأحزاب والأفراد، ويتم الرجوع إلى الشعب كل خمس سنوات مثلا. هذه مهمة الجميع، الرجال والنساء، الشباب والكهول، الذين يستخدمون فيسبوك، والذين يستخدمون الورقة والقلم.

العدد 57: 2011/3

عشر ملاحظات في عصر الثورات

حدثت في كل من تونس ومصر ثورة بالمعنى اللغوي للكلمة، ونجحتا خلال أسابيع في إزاحة الرئيس، وكانتا إلى حد كبير سلميتين. أما بالمعنى الفكري والسياسي للثورة، فيجب أن ينتظر المرء عشرين عاما على الأقل ليصدر حكما على ما جرى في البلدين، فإذا شمل التغيير الطبقة الحاكمة وأيدلوجية الحكم وأصبح الشعب سيدا والفرد حرا كريما، فعندئذ سيكون بالإمكان وصف ما جرى في تونس ومصر بأنه ثورة.

هناك حماس شديد للثورات في العالم العربي، وهذا أمر طبيعي، فالشعوب العربية مكبوتة ومقهورة منذ زمن طويل، والحكام استمرأوا الأمر. وصاحب الحماس الكثيرُ من الكلام الذي أشاد ويشيد بالثورات العربية، ولكن أكثره لا يقدم ولا يؤخر، فهو لا يصمد أمام التمعن والتدقيق. فيما يلي الملاحظات التي تكونت لدي بعد ما شاهدت وسمعت وقرأت خلال الشهور الماضية.

أولا: الإشادة بالعفوية

جميل طبعا أن تثور الجماهير بعفوية، ولكن حدثا جللا كالثورة يحتاج إلى قيادة تقوده إلى النجاح، وإلا سيكون عرضة للفشل. ولذا الأولى بالمحللين، سياسيين ومثقفين وإعلاميين، التأكيد على أهمية التنظيم لا العفوية، فالقوى المعادية للثورات لا تعمل بعفوية، بل بشكل منظم ومنسق.

ثانيا: اعتبار كون المرء شابا مؤهلا سياسيا

كثر المديح للشباب وقيادتهم الثورة، وبولغ في المديح مبالغة غير مبررة، فالشاب قد يكون واعيا سياسيا وقد لا يكون، ومن يرغب في قيادة الجماهير يجب أن يمتلك برنامجا، ويجب أن يمتلك الأطر، كالأحزاب والروابط حتى ولو غير رسمية، لكي يتمكن من أن يقودها ويطبق البرنامج الذي يخدمها. أما أن يتم التعويل على قدرة خارقة يمتلكها الشباب بسبب فيبسوك وتويتر فأمر يفتقر إلى الواقعية والعمق.

ثالثا: قراءة خاطئة لما جرى في تونس ومصر

من نتائج النجاح الذي تحقق في تونس ومصر افتراض أن الثورة في أي بلد عربي ستنجح باتباع نفس الأساليب، فهي تبدأ بمظاهرات في يوم يتم الإعلان عنه في فيسبوك وتويتر، ثم خلال أسابيع يزاح الحاكم بعد أن يلقي خطابات في الوقت الضائع. غاب عن الأذهان سيناريو ميدان تياننمن حيث احتشد شباب الصين في بكين، ولكن تم في النهاية فض الاحتجاج بدبابات الجيش الصيني في حزيران 1989. معروف الآن أن البحرين لم ينجح فيها التحرك، وتم قمعه. وفي ليبيا كان العنف سيد الموقف مبكرا، وتمت إزاحة الحاكم بمعونة خارجية. وحتى وقت صدور هذا العدد [64: 2011/10]، لم يحسم الوضع في اليمن رغم محاولة اغتيال الرئيس. وفي سورية هيمن العنف على الموقف، ويراوح الوضع مكانه.

رابعا: كثرة المبشرين بالثورة أو توفير العامل المساعد على تفجيرها

تنوع الذين يعزى إليهم الفضل في التبشير بالثورة أو المساعدة على تفجيرها، فسمي أشخاص وروايات وقصائد إضافة إلى ويكليكيس ومـن نشر وثائقها. بناء على ذلك تصدق حكمة القول المعروف: للنصر آباء كثر، أما الفشل فيتيم.

خامسا: آراء تتغير بسهولة تغيير الملابس

الكثير من الآراء يعبر عنها بحماس، ثم بعد فترة تبلغ أياما، أو أسابيع، تستبدل بآراء مناقضة، فالحماس لدور قناة الجزيرة في تغطية أحداث الثورة في مصر يتغير بعد تغطية الأحداث في البحرين. والترحيب باندلاع الثورة في ليبيا يتغير ويبدأ الحديث عن ثوار «الناتو». ولذا كل من يحلل اليوم في اتجاه وبعد فترة قصيرة يحلل في اتجاه معاكس محلل مشكوك في قدراته التحليلية، ففي الأصل لم يتمعن في ما كتب أو قال.

سادسا: الاختلاف في الرأي وإدارته

لا يزال الموقف تجاه الاختلاف في الرأي واحترام الاختلاف ضعيفا. على سبيل المثال، أستاذ جامعي أحترمه كتب مقالة عن الوضع في ليبيا تحت عنوان «هذا الانتصار صنعه الشعب الليبي وليس الناتو» قال فيها «كل من يشكك في هذا الانتصار فهو إما متآمر أو جاهل أو رجعي متخلف»[1]. من الظلم الشديد اعتبار مخالفي رأي كاتب المقالة متآمرين وجهلة ورجعيين متخلفين، وطبعا هذا الحكم المطلق لا يمت للموضوعية بصلة.

سابعا: المثقفون من احتقار الجماهير إلى الإشادة بها

المثقفون العرب يكثرون من الحديث عن دور المثقف، ولكن هناك الكثير من الأمثلة على أن المثقف العربي وغير العربي لم يصنع من طينة أخرى. كلنا سمعنا بظاهرة اليساريين السابقين، الذين ينتقلون من اليسار بعد حين إلى اليمين، فكرا أو تطبيقا، ويضعون أنفسهم في خدمة أصحاب السلطة والمال، طوعا في كثير من الأحيان.

وهناك مثقفون كانوا يهجون الجماهير قبل الثورات، وبعضهم قصر الهجاء على جانب غياب مظاهر التعبير عن التأييد للشعب الفلسطيني، خاصة

في أوقات تعرضه لعدوان. لكنهم اليوم يلاحظون مكانة القضية الفلسطينية لدى الشعوب العربية، فانتقلوا إلى المديح.

ثامنا: الإعلام، خاصة التلفزيون، كبديل عن العمل الشخصي أو الحزبي مع الجماهير

ثمة اعتماد كبير على وسائل الإعلام لن يؤتي ثماره لأن الديمقراطية (إذا كانت الغاية والوسيلة) تعتمد في نهاية المطاف على عدد الأصوات، فمن لديه الصلات مع الجماهير من خلال أحزاب أو جمعيات سيكون أقدر على حشد المؤيدين لتحقيق التغيير ممن يعتمد على التلفزيون ووسائل الإعلام الأخرى للتأثير على الرأي العام. ويعرف المتابعون للشؤون الإعلامية في الدول الديمقراطية أن نتائج الانتخابات أتت في مرات كثيرة مخالفة لما يردده الإعلام أو يتوقعه.

تاسعا: لا حاجة إلى الديمقراطية

لاكتمال الصورة، هناك من يرحب بالثورات، ولكن يرى أن السعي إلى إقامة نظم ديمقراطية أمر غير حكيم، لأسباب من قبيل أن الديمقراطية غير قابلة للتحقيق في الواقع، وأنها شكلية وحسب في الدول التي تمارس فيها، أو أن الشعوب غير جاهزة بعد، وما إلى ذلك.

مما لا شك فيه أن نظام الحكم الديمقراطي ليس خاليا من العيوب، ولكنه رغم عيوبه، يقدم الفرصة كل بضع سنوات لتغيير الأوضاع، ويتذكر من يحكم عندئذ أن الشعب سيده وليس العكس.

عاشرا: الفرد والتغيير

من الممكن للمرء أن يتحمس كثيرا للثورة في تونس أو مصر أو حيث يريد، ولكن هذا لا يكفي لتحقيق التغيير المنشود. لو بدلنا من كانوا يدينون

بالولاء للحاكم الذي تغير بكثيرين من مكثري الكلام عن الثورات لما لمسنا تغييرا كبيرا في التعامل مع الناس.

العالم العربي بحاجة إلى تغيير جذري في العقليات. إلى الآن نشاهد تغييرا بالأشخاص، أو تغييرا في الكلام الذي ينطق به نفس الأشخاص.

المتحمس للثورة حقا عليه واجب شخصي وهو أن يتحلى إلى حد معقول بالقيم التي تصبو إليها الشعوب المستعبدة والمقموعة. أقول يتحلى بها، فتلمسها في تصرفاته، لا أن يتشدق بها في المقالات والبرامج التلفزيونية.

سوف يسعدني (إذا كتب لي العمر) أن أشاهد بعد عشرين عاما تغييرا جذريا يمكن المرء من القول إن ما حدث في تونس ومصر وغيرهما من الدول العربية ثورة بالمعنى الفكري والسياسي، نتيجة التمكن من نقل الشعب إلى واقع جديد يتمتع فيه الإنسان بالحرية والكرامة، وتسوده العدالة الاجتماعية.

أما إذا تسرعت وأصدرت حكما الآن فليس هناك ما يدعو إلى الإفراط في التفاؤل والجزم بأن التغيير الجذري قد بدأ. هناك الآن مؤشرات مشجعة وأخرى مقلقة، والأمل أن ترجح كفة الإيجابي رغم المصاعب.

[1] مقالة منشورة في صحيفة «القدس العربي» بتاريخ 2011/8/25.

العدد 64: 2011/10

هارد لك (*) يا شباب

إذا أردت أن تشوش مقدرة إنسان على التفكير السليم، بالغ في الثناء عليه، والإشادة بقدراته، وبعبقريته. الشباب في الدول العربية كانوا خلال العام الماضي ضحية هذا الأسلوب الذي مارسه كثيرون، ليس عن سوء نية بالضرورة، بل في أحيان كثيرة لأنهم بحاجة لأن يقولوا شيئا في المقابلات، أو المقالات الدورية، والتنظير قبل إمعان التفكير. ولذا كان الشباب مفجري الثورات وقادتها، وخالعي الحكام، وكانت أسلحتهم الأشد فاعلية هي الإنترنت وفيسبوك وتويتر.

ولكن عندما حدثت انتخابات في تونس ومصر والمغرب، حققت التيارات الإسلامية نتائج حسنة، على حساب الشباب والقوى التي تسمى يسارية وليبرالية.

من السهل اللجوء إلى اتهام الفائزين بأنهم انتهازيون، وما شابه من تفسيرات تتفادى مواجهة الواقع المتمثل في أن الأقدر على حشد جمهور أكبر ليصوت له سيكون في وضع أفضل للفوز، شريطة أن تكون الانتخابات حرة ونزيهة.

لا أنفي وجود انتهازية، ولكن من يظن أن الانتهازية حكر على جماعة دون غيرها يرتكب خطأ سياسيا بديهيا. من يدخل ميدان السياسة عليه أن يدرك قبل دخوله أنه ميدان مليء بالانتهازية، وهذه أيضا ليست دعوة لممارستها، بل للتحسب لها من خلال الاعتماد على تأييد أكبر عدد ممكن من الجماهير.

الأحزاب والجماعات تدخل ميدان السياسة للوصول إلى السلطة، وهذا أمر مشروع طالما أن غايته خدمة الشعب لا استعباده أو استغلاله. والقبول بنتائج انتخابات لا يعني الاستسلام الدائم والخروج من الحلبة. ولا تعني الاتفاق على برنامج أو أيدلوجية الفائز. ولذا التفكير يجب أن يتجه بعد الخسارة إلى تقييم ما جرى، والتفكير في المرحلة القادمة والإعداد لها.

في الرياضة بعض الفرق تحقق البطولة مرات عديدة متتالية، ولكن يأتي من يهزمها ويكسب الكأس. وفي السياسة يحدث ذلك أيضا، فمارغريت ثاتـشر فازت في الانتخابات ثلاث مرات متتالية، وحزبها، حزب المحافظين، فاز مرة أخرى بعد إزاحتها عن زعامة الحزب. رغم ذلك تمكن حزب العمال المعارض من الفوز وحظي أيضا بنجاح متكرر. حدث ذلك رغم أنه في بعض الأوقات بدا حزبا محطما لا يمكن له أن يفوز.

الشباب بحاجة إلى تنظيم أنفسهم على شكل أحزاب سياسية أو إئتلافات، أو الانضمام إلى ما هو موجود من أحزاب. أما الاعتماد على عدد زوار صفحة تقام على فيسبوك كمقياس للشعبية فلا يعتد به عندما يتعلق الأمر بالانتخابات، ومن استخدمه مقياسا لشعبيته لا غرابة أنه صدم بعدم الفوز في الانتخابات.

ربما أكل الشباب وشربوا الكثير من هذا الوهم الذي روج لقدرات خارقة لهم لكونهم شبابا ولاستخدامهم الإنترنت وفيسبوك وتويتر. وها هم يتعلمون أول درس في الواقعية.

الأحزاب الإسلامية وغيرها صبرت على الاضطهاد، وعندما جاءت الفرصة استفادت الجماعات الإسلامية من التغيير الذي حصل، فخاضت الانتخابات، وحققت نتائج حسنة في هذه المرحلة في كل من تونس ومصر والمغرب. والشباب يحتاج أيضا إلى الصبر، فالنجاح الباهر السريع الذي تحقق في إزاحة

بعض الحكام لم يكن عملا بدون مقدمات مهدت له الطريق وجعلته ممكنا بجهود الشباب وغير الشباب، رجالا ونساء.

خلال مرحلة الانتظار سيمر العمر، وقد لا يبقى الشاب شابا، ولهذا كان تقسيم الشعوب إلى شباب وأجيال خائبة الذي صاحب الانتفاضات العربية تقسيما لا مبرر له وغير واقعي سياسيا وإنسانيا.

(*) هارد لك :: Hard luck :: عبارة تقال عادة على سبيل المواساة عندما لا يحالف الحظ شخصا ما.

العدد 67: 2012/1

عامان على محاولا التغيير في العالم العربي

تمكن شعب تونس قبل عامين من الإطاحة بزين العابدين بن علي. وبعد ذلك بفترة وجيزة تمكن شعب مصر من خلع حسني مبارك. في الحالتين كانت الحركة الشعبية المطالبة بالتغيير سلمية إلى حد كبير.

نجاح التغيير في تونس ومصر ولّد وهما يتمثل في الظن بأن كل نظام عربي سوف يسقط بنفس الطريقة، وما يطلبه الأمر هو مظاهرات تستمر بضعة أسابيع، فيضطر الحاكم بعدها إلى التخلي عن حكمه.

ورافق هذا الوهم إفراط في النظرة الرومانسية لمحاولات التغيير في العالم العربي، فكثر استخدام مصطلحات تنتجها شركات العلاقات العامة من قبيل ثورة الياسمين والربيع العربي، وكثر المبشرون بالثورة، وراكبو موجاتها.

لكن الواقع جاء بكل قسوته عند محاولة التغيير في دول عربية أخرى، ففي البحرين أجهز على التحرك بالقوة، وفي ليبيا حدث تدخل عسكري خارجي، وفي اليمن انتهت المحاولة بالتفاوض مع الرئيس على حصانة من المقاضاة قبل نقل السلطة، وفي سورية تحولت محاولة التغيير إلى صراع مسلح لا يزال مستمرا.

الآن، بعد مرور عامين على التغيير في تونس ومصر، ظهرت في البلدين مظاهر عدم الرضا عما أنجزته الأحزاب الجديدة في السلطة، وعن الأولويات في التغيير الذي تريد أحزاب السلطة الجديدة تحقيقه، فعادت إلى الشوارع

والميادين المظاهرات والاعتصامات والاشتباكات بين أنصار التيارات المختلفة وأسفرت عن قتلى وجرحى. وفي ضوء عدم الرضا هذا، سيبقى الجدل مستمرا حول الديمقراطية والإسلام السياسي، لأنه أصبح لدى الجماعات الإسلامية ومعارضيها ما يؤكد وجهة نظر كل طرف.

منعت الحركات الإسلامية في مرحلة سابقة من المشاركة في العملية السياسية بذرائع مختلفة إحداها أنها ستغير طبيعة النظام الديمقراطي بعد الوصول إلى السلطة عن طريق الديمقراطية (علما بأن النظم لم تكن ديمقراطية). وأثناء استبعاد الإسلاميين، كانوا يقولون إنهم قبلوا بالديمقراطية لأنها لا تتعارض مع الإسلام.

بعد الحصول على فرصة إدارة الحكم، أظهرت الأحزاب الإسلامية أن تحديدها للأولويات مختل لصالح وضع أساس لمرجعية دينية للحكم، بدل الاهتمام ببرامج التغيير الاقتصادي والاجتماعي، وتحقيق تغيير يؤسس لواقع جديد مختلف عما كان سائدا في النظام التي أزيح رئيسه.

وفي ضوء المعارضة التي ووجهت بها الحركات والأحزاب الإسلامية، سوف تزداد قناعتها بأن القوى الأخرى من علمانية ووطنية ويسارية ترفض قبول نتائج الانتخابات عندما تأتي في غير صالحها، بدءا بتجربة جبهة الإنقاذ الإسلامي في الجزائر، ومرورا بحركة حماس في فلسطين، ثم النهضة في تونس، فالإخوان المسلمين في مصر.

في المقابل تتحمل القوى اليسارية والوطنية والقومية قدرا من المسؤولية لأنها أيضا تظهر أنها غير قادرة على تقبل عدم الفوز في الانتخابات، ولم تتعامل مع النتيجة على أساس أنها أمر يمكن تغييره بعد بضع سنوات من العمل السياسي والجماهيري، فالتأييد الشعبي للحركات الإسلامية في مرحلة ما كهذه ليس قدرا، بل ظاهرة ذات أبعاد اقتصادية واجتماعية وسياسية واجتماعية يمكن أن تدرس وتفهم، ويجرى التعامل معها.

لا أحد يمتلك الدين، ولا أحد يستطيع أن يكون ناطقا وحيدا باسم الدين، وفي الوقت نفسه العلمانية يجب ألا تعني معاداة الدين والمتدينين والجماعات ذات الاتجاهات الدينية، فالذين بشروا بانتشار العلمانية على حساب الدين في الماضي اضطروا للتراجع عن تنظيراتهم بخصوص انتشار العلمانية، وعن ذلك كتب بيتر بيرغر، أحد هؤلاء المنظرين، عام 1999 «العالم اليوم، مع بعض الاستثناءات، متدين كما كان دائما، وفي بعض الحالات اشد تدينا»(1).

بعد حرب عام 1967 ظهرت حركات المقاومة الفلسطينية، ولم تكن بينها منظمات إسلامية، وكانت حركات المقاومة من وطنية ويسارية تتمتع بتأييد جماهيري فلسطيني (وعربي وعالمي). ولكن بعد فترة من الزمن بدأ التأييد لهذه الحركات ينحسر لصالح الحركات الإسلامية. الشعب في الحالتين نفسه: أيد الوطنيين واليساريين في مرحلة، ثم أيد الإسلاميين في مرحلة ثانية، ويمكن أن يوجه تأييده إلى غير الإسلاميين مرة أخرى في حال قيام اليساريين والقوميين والوطنيين بخدمة مصالح الجماهير بشكل أفضل من الإسلاميين.

بعد مرور عامين على بدء محاولات التغيير في العالم العربي تبدو صورة الأوضاع قاتمة، فحيث ينقسم المجتمع، وتسيل دماء كثيرة، لا يمكن بناء نظم ديمقراطية، وسيعيد الاستبداد إنتاج نفسه بذرائع قديمة-جديدة.

مفتاح الحل هو العيش في القرن الواحد وعشرين بعقليته، وقبول الإسلاميين وغيرهم من التيارات العلمانية والوطنية والقومية واليسارية بأن يكون التنافس على الوصول إلى الحكم تنافسا مفتوحا ديمقراطيا شريفا، لا تنافسا أيديولوجيا من عصر الحرب الباردة، يؤدي إلى تجدد النزاعات الأهلية، ويؤدي ولو بعد حين إلى الفشل في تطبيق البرامج السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

العدد 79: 2013/1

فاشية إسلامية؟

تزايد في الآونة الأخيرة استخدام «الفاشية الإسلامية» في معرض الامتعاض من تحقيق التيارات الإسلامية نتائج جيدة في الانتخابات في مصر وتونس والمغرب، وما تبع ذلك من ممارسات أو تصريحات في المجال السياسي أو غيره، وتزايد احتمالات تمكن هذه التيارات من فرض برنامج حكم يفتقر إلى الحريات الفردية والعامة الأساسية.

من حق أي إنسان أن يعارض الإسلاميين وغير الإسلاميين سياسيا وأيدلوجيا، ولكني أدعو كل من تراوده نفسه باستخدام «الفاشية الإسلامية» إلى العدول عن ذلك لأسباب سأوجزها أدناه.

المتعصبون ضد الإسلام والمسلمين في الغرب حاولوا الحديث عن ظاهرة سموها الفاشية الإسلامية، وأقيمت ندوات في الجامعات الأميركية للترويج لفكرة وجود فاشية إسلامية، والغاية منها تشويه الإسلام والمسلمين من خلال حملات يقوم بها متعصبون عنصريا أو دينيا.

في الماضي كان هناك اختلاف بين الإسلاميين والقوميين والشيوعيين وغيرهم في العالم العربي، والأوصاف التي استخدمت في الإشارة إلى التيارات المختلفة كانت من قبيل رجعي وتقدمي، وفي السياق الديني سلفي أو وهابي أو تحريري أو «اخونجي»، ولم يتم استخدام صفة «الفاشية» عشوائيا في الصراع السياسي بين الأطراف المختلفة أيدلوجيا.

من المعروف تاريخيا أن بعض الأحزاب في العالم العربي كانت معجبة بالظاهرة الفاشية التي نشأت في إيطاليا، واقتدت بها. حتى في الدول الغربية، بما في ذلك بريطانيا، أقدم الديمقراطيات، كانت هناك جماعات أو أحزاب فاشية (في بريطانيا عرفت بجماعة القمصان السود). ولكن الحزب الاشتراكي معروف، والفاشي معروف، والحزب القومي معروف، والحزب الإسلامي معروف. وقبل حركات التغيير في الدول العربية لم يكن شائعا وصف الدكتاتوريات السائدة بأنها فاشية.

لكي نستطيع أن نشعر بالاطمئنان لتولي شخصيات جديدة (شابة وغير شابة) دورا قياديا في ميادين السياسية والثقافة والإعلام يجب أن نلمس درجة عالية من الوعي السياسي والفكري، وهذا لا يتم من خلال استخدام أوصاف خارجة عن سياقها التاريخي والسياسي والفكري، وسبق استخدامها من عتاة المتعصبين ضد الإسلام والمسلمين.

إذا أراد المهتمون بالشأن السياسي أن تكون الديمقراطية أساس نظام الحكم، فيجب ألا يغيب عن البال أن المبالغة في الإساءة إلى الخصم السياسي تنجح أحيانا، ولكنها تفشل أيضا لأن المساء إليه يلقى التعاطف من الآخرين. وفي نهاية الأمر عندما يحتكم المتنافسون إلى الجمهور لكي ينتخب من يريد، من يحصل على العدد الأكبر من الأصوات يفوز. ولذا من الأفضل أن تخف درجة الشتائم وتزيد درجة تكوين قاعدة من المؤيدين يعول عليها عند إجراء الانتخابات.

العدد 71: 2012/5

عن الحداثة

ما الحداثة؟ وهل الانتقال من مجتمعات تقليدية إلى مجتمعات حديثة يعني فقدان الهوية الأصلية واكتساب هوية غربية؟

المجتمع التقليدي هو المجتمع السائد قبل ظهور ما يعرف الآن بالدولة-الأمة، وكان يعتمد على القبيلة التي تقدم الرعاية لأفرادها. كثير من المجتمعات انتقلت من حالة المجتمع التقليدي إلى حالة الدولة-الأمة، القائمة على بقعة جغرافية محددة، وشعب أكبر من قبيلة واحدة، وتربط أفراده قواسم مشتركة كاللغة. ويتوقف في الدولة اعتماد الفرد على قبيلته، وتصبح الدولة من يحدد له حقوقه وواجباته.

يعرف بيتر بيرغر [1] الحداثة بأنها التحول الذي شهده العالم قبل قرون (ابتداء من السابع عشر) نتيجة الابتكارات التقنية التي بدأت في أوروبا، ثم انتقلت إلى بقية العالم، وكان لها تأثير كبير في المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

ويرى دانكوارت رستو [2] أن للحداثة ثلاثة أوجه: تقني، واجتماعي، وفكري. وتأثيرها يطول المجتمع والفرد. وقد اعتبر رستو وغيره السير على طريق الحداثة سيرا على طريق التحول إلى مجتمعات شبيهة بالغربية، ولكن في رأيي أن أصحاب وجهة النظر هذه مخطئون إذا نظرنا على مختلف التجارب في دول

العالم النامي، وبينها الدول العربية والمسلمة، ففي هذه الدول لا يجد أفراد مجتمعاتها مشكلة في تقبل الجانب التقني من الحداثة، فعلى سبيل المثال، استبدلت الجمال والخيول بالسيارات كوسائل للتنقل.

وحتى في حال رفض بعض الابتكارات التقنية كالتلفزيون نجد أن الموقف منها يتغير بعد فترة، بدليل انتشار القنوات المتخصصة بالشؤون الدينية هذه الأيام.

وتأثير الحداثة يُلمس أيضا في تغير الموقف من بعض الأمور الاجتماعية، ففي الماضي كان تعليم المرأة نادرا، ولكنه شائع الآن، وبعد أن كان عملها يتم نتيجة حاجة ملحة (أرملة مثلا)، صار عمل الزوجين معا ضروريا للتمكن من تلبية متطلبات العيش، وأصبح عمل المرأة متزوجة أو غير متزوجة أمرا عاديا.

أما أصعب وأبطأ تغيير فهو التغير الفكري، مع أن الإنسان قد يظن أن تغيير الأفكار أمر سهل، ولكن الواقع يؤكد عكس ذلك، فالتغيير الفكري المقصود هو تصرف الإنسان وفق الأفكار التي يقول إنه مقتنع بها.

المجتمعات العربية والمسلمة اختارت من الحداثة بشكل انتقائي، فقبلت بعض الأمور، ولا تزال لا تتقبل أمورا أخرى. وهذا يقود إلى استنتاج أن رفض الحداثة بمجملها غير ممكن.

أما التحول إلى مجتمع حديث في جوانبه الثلاثة، التقنية والاجتماعية والفكرية، فحالة ليست لها نقطة نهاية، كما يرى رستو (Rustow)، الذي يقول أيضا إنه ليس بوسع أي مجتمع أن يقول إنه حديث كليا، وهذا الرأي صحيح، فحتى في المجتمعات التي تعتبر حديثة —كما في أوروبا والولايات المتحدة— توجد تيارات غير مواكبة للحداثة بشكل كامل.

ليس هناك ما يدعو إلى القلق عندما تسير المجتمعات الشرقية على درب الحداثة، مهما كان السير بطيئا، فبعض سمات المجتمعات التقليدية من تكافل وتضامن اجتماعي وإنساني سمات جديرة بأن تبقى. ولكن هناك ما

يدعو إلى الكثير من القلق عندما يتم التركيز على الأخذ بالجانب التقني من الحداثة، والاحتفاظ بسمات المجتمع التقليدي الذي نعرف أن ليس كل سماته جديرة بالديمومة، من قبيل الخلافات بين القبائل أو الثأر.

المجتمعات العربية تمر الآن في مرحلة أوضاعها مجهولة النهاية، وأمامها فرصة لا تتكرر كثيرا لجعل التغيير المنشود تغييرا أشمل وأعمق. ويتحقق ذلك في رأيي بتبني المزيد من الجانب الفكري من الحداثة.

العدد 74: 2012/8

عن معايير حقوق الإنسان

ثمة جدل في الأوساط الأكاديمية وغيرها حول معايير حقوق الإنسان، فهناك من يريدها عالمية، وآخرون يريدون أن يترك أمرها لكل بلد أو ثقافة.

ينطلق بعض مؤيدي التنوع في معايير الحقوق من رفضهم للهيمنة الثقافية، وتحديدا الغربية، والحرص على التنوع الثقافي في العالم. ويبدو هؤلاء محقين في وجهة نظرهم عندما تستخدم حقوق الإنسان كذريعة تبرر التدخل في شؤون الدول الأخرى، إلى حد التدخل العسكري وتغيير النظم الحاكمة، وفي الوقت نفسه يتم السكوت عن انتهاكات حقوق الإنسان بمقياسها العالمي والمحلي في الدول التي ترتبط بعلاقات وثيقة مع مستغلي فكرة حقوق الإنسان.

على سبيل المثال، أثناء الحرب الباردة وقبل انهيار الاتحاد السوفييتي كانت الدول الغربية ترى انتهاكات حقوق الإنسان في الاتحاد السوفييتي والكتلة الشرقية، ولا تراها في دكتاتوريات أميركا الجنوبية وغيرها.

ورغم الهالة التي تحاط بها المعايير العالمية لحقوق الإنسان، إلا أن تطبيقها منظم بقيود قانونية، تجعلها بلا قيمة فعلية لو سمح باستغلال القانون لإفراغ الحقوق من محتواها، وهذا ما يحدث فعلا حتى في الدول الديمقراطية، ولذا فإن المحاكم المختصة بالبت في انتهاكات الدول لحقوق الإنسان، كالمحكمة الأوربية لحقوق الإنسان، تؤكد على أن الحالات التي تجعل القيود على ممارسة

حقوق الإنسان ضرورية في المجتمع الديمقراطي حالات قليلة، وهي دائما أقل من الحالات التي تسعى فيها الحكومات إلى تقييد ممارسة الحقوق.

وثمة رأي يرى أن الدول عندما تقرر الانضمام إلى الأمم المتحدة، فهي توافق ضمنا، إن لم يكن صراحة، على احترام المعايير العالمية لحقوق الإنسان. ولكن في التطبيق العملي تلتزم الدول الأعضاء في الأمم المتحدة بالمعايير العالمية بالقدر الذي يناسبها، فمن الممارسات الشائعة في المعاهدات الدولية التحفظ على بند أو أكثر، كما الحال في سيداو، الميثاق المتعلق بمنع التمييز ضد المرأة.

بعد أن بينت أن المبدأ والممارسة لا يسيران جنبا إلى جنب، أود العودة إلى النقطة الجوهرية في الموضوع وهو المقياس: هل يجب أن يكون عالميا، أم مختلفا حسب البلد والثقافة؟ في رأيي أن من يعتقدون أن المعيار العالمي يعني هيمنة ثقافية مخطئون. وسوف أوضح أسباب اختلافي مع هذا الرأي.

للمنتمي إلى شعب أو ثقافة أو دين ما حقوق وواجبات، وبالتالي فإن احترام هذه الحقوق تبعا لهذه الانتماءات حق أصيل، ورغم ذلك يتم انتهاك هذه الحقوق بذريعة اختلاف الحقوق المحلية عن الحقوق العالمية.

لرفض الهيمنة الثقافية وجوه عديدة، منها السياسي والاقتصادي، وفي مقاومة الهيمنة في هذين المجالين ما يكفي للحفاظ على التنوع الثقافي المرغوب عالميا، فالتنوع الثقافي الذي يرحب بمطاعم ومقاه وأشياء أخرى كثيرة غربية ويتمسك بالعصبيات المختلفة تنوع ثقافي مزيف.

معايير احترام الحقوق اختلفت على مر الزمان. عندما بدأ طرد العرب والمسلمين واليهود من إسبانيا، اختار الكثير من اليهود العيش في العالم الإسلامي لأن معايير احترامه للحقوق كانت أفضل من معايير الدول الأوروبية آنذاك. أوروبا تقدمت، وتقدمت أيضا معاييرها. ولذا، ليس هناك ما يمنع تطور معايير الحقوق في الدول غير الأوروبية ودون أي ضغط من الخارج.

العالم هذه الأيام منفتح، ولا يستطيع أحد أن يغلق مجتمعه. في الماضي كان ذلك ممكنا، فما على نظام الحكم إلا أن يقيد السفر من البلد وإليه، ويظل المجتمع في حالة جمود مئات السنين. هذا غير ممكن حاليا، خاصة في عصر دخول التكنولوجيا في كل شيء.

بناء على ما سبق، من الأفضل لمن يرفض المعيار العالمي الحالي لحقوق الإنسان أن يقدم للعالم معيارا أفضل، فيصبح المعيار الجديد هو المعيار العالمي، فتصبح الدول الغربية مطالبة باحترامه، وعندئذ ستكون حجتها واهية إذا رفضت بذريعة الاختلاف الثقافي.

العدد 75: 2012/9

الليبرالية: ما لها وما عليها

مفهوم الليبرالية ليس مفهوما موحدا مجمعا عليه، فهذا أمر مستحيل بالنسبة إلى كل المفاهيم. ولكنه شائع الاستخدام هذه الأيام، ويستخدم في سياق سلبي وإيجابي، فقد يكون المقصود مديحا أو شتيمة عندما يوصف شخص ما بأنه ليبرالي.

المصطلح معتمد على تعريب لكلمة ليبرتي (liberty) التي تعني الحرية، وهناك كلمة رديفة للحرية هي فريدوم (freedom). ورغم وجود من يقول إن هناك فرقا بين الاثنتين، إلا أن الشائع استخدام الكلمتين لتعنيا أمرا واحدا وهو الحرية. أما مفهوم/مصطلح الليبرالية فله مضامين سياسية واقتصادية. وهنا يظهر أول اختلاف حول المضامين بين الليبراليين أنفسهم وبين مؤيدي الليبرالية ومنتقديها.

تقوم الليبرالية في الشق السياسي على حقوق وحريات الفرد، قبل الجماعة، وليس لحكومة أو سلطة حق في التصرف فيها. أما في الشق الاقتصادي فالاختلاف أعمق وأوسع، فبعض الليبراليين يرى أن تقديم العون للفقراء من واجبات الدولة، وآخرون يرون أن هذا ليس من شأنها.

كتعبير مستورد إلى العالم العربي، تطلق صفة «ليبرالي» على أشخاص لو دققنا فعلا في مدى قبولهم لمبادئ الليبرالية، خاصة ما يتعلق بالحريات الفردية، سنجد أنهم ليسوا ليبراليين حقا، وأفضل مثال على ذلك صحفيون يسمون ليبراليين لكنهم مؤيدون لأنظمة حكم أو أحزاب لا صلة لها بالليبرالية.

وفي المقابل نرى استخدام الليبرالية كشتيمة خاصة في المجال الاقتصادي/ المالي، فيقال إن الشخص الفلاني أحد الليبراليين الذين أفقروا هذا البلد العربي أو ذاك من خلال خصخصة مؤسسات القطاع العام.

هناك علاقة وثيقة بين الليبرالية والديمقراطية، توصف بأنها علاقة متوترة، أو علاقة بين ضدين أو متنافسين، فالليبرالية أساسها الفرد، والديمقراطية أساسها الشعب والمساواة. ولم تُقبل الديمقراطية كنظام حكم إلا بعد توفيق بين الليبرالية والديمقراطية، بحيث لا تكون الديمقراطية «دكتاتورية الأغلبية»، أو دكتاتورية بالتصويت. ولذا تم اعتماد فكرة الدستور الذي يصون الحقوق الفردية، وينظم العلاقة بين الفرد والشعب من جهة والدولة من جهة أخرى.

ويمكن القول إن الليبرالية والديمقراطية وجهان لعملة واحدة، فلا يعتبر نظام ما ديمقراطيا إذا كان يحكمه مدى الحياة شخص واحد، ولكن قصره مفتوح لكل الشعب. وكذا الحال بالنسبة إلى نظام يسيطر عليه حزب واحد، أو توجد فيه أحزاب عدة، ولكن الحريات الأساسية غائبة أو مقيدة بقيود شديدة.

خلاصة الموضوع أن الليبرالية ليست مديحا أو شتيمة، وحدود الليبرالية سياسيا واقتصاديا غير ثابتة لأنها محل خلاف دائم، وخاصة في ما يتعلق بالحريات ومداها في الشق السياسي، والعدالة والرعاية الاجتماعيتين في الشق الاقتصادي.

وبناء على ما سبق، يجب أن يعي كل من يطالب بالإصلاح والحرية والديمقراطية أنه يطالب أيضا بتطبيق مبادئ من الليبرالية، والمطالبة بإقامة نظام ديمقراطي يترتب عليه استحقاقات من قبيل حريات أساسية لا تضيقها أو توسعها السلطة ليناسب مقاسها ولونها السياسي أو الأيديولوجي.

العدد 73: 2012/7

الديمقراطية وفرضها بالقوة

هناك سخرية من الديمقراطية في مقالات يكتبها بعض ذوي الميول اليسارية استنادا إلى ما جرى في أفغانستان والعراق وليبيا وما يجري حاليا في سورية.

الساخرون من الديمقراطية لارتباطها في بعض الحالات بالتدخل العسكري الأجنبي يخلطون بين أمرين، هما فرض الديمقراطية بالقوة، والديمقراطية نفسها. محق مـن يسخر من فرض الديمقراطية، سواء أكانت محاولة فرضها بالقوة أم بالتمويل الأجنبي للمنظمات غير الحكومية ومنظمات المجتمع المدني (للمصطلحين إشكاليات طبعا).

فرض الديمقراطية أمر يناقض مفهوم الديمقراطية نفسه، واكتشاف ورفض هذا التناقض ليس أمرا جديدا. دانكوارت رستو (1967) توقف عند هذه المسألة وذكّر بأن الديمقراطية تعني حكم الشعب لنفسه (ص 236). وفي دراسة عن فرض الديمقراطية على العراق، يذكّر ديفيد بيثام (2009) بالأمر نفسه.

لا ينسى بـيـثام الإشارة إلى حالات فرضت فيها الديمقراطية بالقوة، وحصل على أثرها تحول ديمقراطي، وخاصة حالتي ألمانيا واليابان، فالأولى كان يحكمها النازيون والأخرى إمبراطور، وكلتاهما غزت دولا أخرى. ولكن بيثام يوضح الفرق بين هاتين الحالتين وحالة العراق، ففي الحرب العالمية الثانية لم

تكن الغاية فرض الديمقراطية على ألمانيا واليابان، بل هزيمة البلدين عسكريا وحرمانهما من المقدرة على الاعتداء على الدول الأخرى في المستقبل (ص 450).

نقد بيثام لفكرة فرض الديمقراطية لا يـدفعه وأمثاله إلى السخرية من الديمقراطية نفسها، بل يؤكد على جدواها كنظام سياسي، وعلى ضرورة أن تكون النظم المسماة ديمقراطية حقا كذلك. ولذلك، طور وسيلة لتقييم مدى ديمقراطية بلد ما من خلال استبيان مفصل يتكون من مئة سؤال تقريبا.

أما تعريف الديمقراطية فمسألة تتحول إلى وسيلة لتمييع الحديث عنها، فهناك رأي يقول إن الديمقراطية مستحيلة التطبيق لأنه من غير الممكن أن يحكم شعب نفسه. وهناك من يعتبر إجراء انتخابات من حين لآخر دليلا على أن النظام ديمقراطي. وهناك من يصف أي شيء يراه الحكام مناسبا بأنه ديمقراطية بل وأفضل منها. وهناك رفض تام للديمقراطية بذريعة أنها تتعارض مع القيم أو الثقافات المحلية.

لا استغرب أن يختلف الأكاديميون على تعريف الديمقراطية، فهذه سمة من سمات الوسط الأكاديمي. ولكن حتى عندما يسرد المرء أكثر من تعريف للديمقراطية فإن ذلك ليس أكثر من كلمات مختلفة تعرف فكرة واحدة. ولذا سوف أكتفي بتعريف موجز للديمقراطية وهو لجون كين (1991) الذي يعرفها بأنها عملية إجرائية يتـقرر من خلالها من يخول بالحكم، وتنطوي على مجموعة من المبادئ منها المساواة وحق شامل في الانتخاب، وحكم أغلبية مع ضمانات للأقلية وسلطة القانون وضمانات دستورية بخصوص الحريات (ص 168).

وبناء على ذلك، السخرية من الديمقراطية لأنها استخدمت كذريعة للتدخل العسكري فيها خلط بين أمرين ليس من الحكمة الخلط بينهما، فرفض التدخل الخارجي مبدأ صحيح، ولكن رفض الديمقراطية موقف غير سليم حتى عندما يكون الرفض نابعا من نية حسنة، كالحرص على العدالة الاجتماعية، فمن الممكن إقامة نظام يجمع بين الديمقراطية والعدالة الاجتماعية.

من يصور الديمقراطية كحل سحري لا يحترم عقول الآخرين، فالديمقراطية ليست حلا سحريا للمشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لأن الدول الديمقراطية تعاني من مشكلات في هذه المجالات، وعندما تحاول تطبيق حلول لها تنجح في بعضها وتفشل في أخرى، ولكن الصادق مع نفسه في تحليل الأمور لا يستطيع إنكار أن الديمقراطية تعطي فرصة للتغير السلمي كل بضع سنوات، ولذا عندما يسئ حزب إدارة شؤون البلاد والشعب، يمكن استبداله وتحقيق التغيير دون ثورة ولجوء إلى العنف ومن ثم إعادة إنتاج الدكتاتورية والفساد.

العدد 77: 2012/11

عن التاريخ

ما هو التاريخ؟ هذا سؤال يُطرح دائما وتجري محاولات لتعريفه. اعتباره سلسلة من الأحداث، أو سردا لها، أمر لا يقبله المهتمون بدراسته. وهناك أيضا رفض لفكرة أن التاريخ يعيد نفسه. آخرون يرون أنه إذا أعاد نفسه، تكون الإعادة على شكل مهزلة، لا نسخة طبق الأصل عن الحالة الأولى. وفي تصور كارل ماركس فإن الثورات هي محرك التاريخ.

وتنسب للتاريخ أشياء كثيرة، فهو مثلا «لا يرحم»، أو يقول كلمته أو يبرهن أو يعلّم. وللتاريخ أيضا سلة مهملات، وبفعل الترجمة إلى العربية أصبحت السلة «مزبلة»، وهذه يحتاجها التاريخ أكثر من سلة المهملات التي لا يمكن أن تتسع إلى شخصية واحدة تستحق هذا المآل.

وبعض الأحداث توصف بأنها تاريخية للتأكيد على أهميتها، وضمنا هذا يعني أن أحداثا أخرى غير تاريخية، فهل لمثل هذا التصنيف أساس علمي؟

المهتمون بفهم ماهية التاريخ حاولوا اكتشاف القانون العلمي الذي يؤدي اكتشافه إلى حساب مواعيد الثورات مثلا، مثلما تؤدي القوانين العلمية إلى حساب الزمن الذي تحتاجه سيارة لقطع مسافة معينة بسرعة معينة، فالسيارة سوف تحتاج إلى ثلاث ساعات إذا كانت المسافة 300 كيلو متر وسارت بسرعة مئة كيلو متر في الساعة.

وجود علاقة بين بعض المفاهيم أو الأيدلوجيات والعلم ظاهرة معروفة أيضا. هناك ما عرف بالاشتراكية العلمية، وعندما تقرن الاشتراكية بالعلم فالغاية

التأكيد على تميزها عن اشتراكيات أخرى، وربطها بالعلم يهدف أيضا إلى القول إنها منزهة عن الأهواء والأخطاء.

هناك حكمة تقول «دوام الحال من المحال». وبناء عليها، يمكن اعتبار كل إنسان كان يعلم بهذه الحكمة ومقتنعا بها مبشرا بالثورات العربية التي حدثت وتلك التي قد تحدث بعد قرون. ولكنْ هناك فارق كبير بين قانون علمي ومجرد حكمة، فعندما نقول «دوام الحال من المحال» لن يقبل أحد بأن هذا قانون علمي لأنه لا يعطينا موعدا محددا لتغيير الحال. أما القانون العلمي فيمكن من خلاله أن يُحدد موعد التغيير.

لا أملك تعريفا للتاريخ، وأتحدث عنه كما يجري على لسان الناس. ومع أن استخدام المصطلحات بدقة مفيد، ومن سمات النهج العلمي، إلا أن تعريف المفاهيم وإعادة تعريفها، مهمة فكرية لا تتوقف، ولكنها أيضا لا تزيد من وضوح المصطلح دائما. إنني أتحدث عن التاريخ بالوضوح والغموض اللذين يكتنفان المصطلح.

في كتاب عن قضايا الترجمة قال المؤلف الراحل أندريه لافيفر (1972: ص 37): «إن التاريخ لا يبرهن شيئا». وقد اقتنعت بذلك منذ قرأت هذه العبارة وشرحه لها، فالأحداث «التاريخية» المختلفة لا تقودنا إلى استنتاج واحد يجعلنا نتنبأ المستقبل في ضوء ما جرى في الماضي. وهذا أيضا يعيدنا إلى نقطتي: هل يوجد قانون علمي يحكم التاريخ؟

الإجابة عن هذا السؤال وجدتها عند الفيلسوف النمساوي الأصل، البريطاني الجنسية، كارل بوبر (1962)، الذي انتقد أنصار ثلاث نظريات في ثلاثة ميادين، وهي التفسير الماركسي للتاريخ، والتحليل النفسي الفرويدي (نسبة إلى فرويد)، وعلم النفس الفردي.

ويشير بوبر إلى تجربة شخصية مع ألفرد أدلر، الشهير في ميدان علم النفس الفردي، وكان يعمل مع الصغار والشباب في مراكز الإرشاد الاجتماعي في أحياء الطبقة العاملة في فينا. وقد ذكر بوبر لأدلر حالة صبي، فبدأ أدلر يحللها

وفق نظريته في علم النفس الفردي المستندة إلى مشاعر النقص. وقد حلل الحالة دون أن يعاين الصبي.

وينبه بوبر إلى خلل في تفكير مطلقي صفة العلمية على بعض النظريات، فلأنهم أقنعوا أنفسهم بالصفة العلمية للنظرية فهم يشاهدون الأدلة على صواب وجهة نظرهم كل يوم. ولكنه يستنتج أنه لا يوجد قانون علمي يتحكم بالتاريخ. والنبوءات، إن صحت، أمر مختلف عن الوصول إلى استنتاج بناء على قانون علمي كما في مثال السيارة في المقدمة.

يؤكد غياب قانون علمي يحكم حركة التاريخ أنه (التاريخ) يفاجئنا دائما، ويفاجئ من يزعمون أنهم علماء في التاريخ. من الأمثلة التي فاجأت «العلماء» سقوط نظام الشاه في إيران، وثورة الشعب الفلبيني على الجنرال ماركوس، وانهيار الاتحاد السوفييتي، وحدوث ونجاح أول ثورة عربية في تونس، والأمثلة عديدة.

ومثلما لا يوجد قانون علمي يحكم حركة التاريخ، فإن التاريخ أيضا بريء من إصدار الأحكام. «التاريخ هو الناس»، كما قال لافيفر في كتابه عن قضايا الترجمة. لو اختلف الناس اليوم على أمر، هل سينتظرون رأي التاريخ فيه؟ كيف يفعل التاريخ ذلك؟ وأين؟ ولو صدر حكم التاريخ على أمر بعد مئة سنة من حدوثه، هل سيقبل بحكمه المختلفون في الرأي؟ لا طبعا. ما اختلف عليه الناس في الماضي استمر خلافهم عليه بعد قرون. ولكل إنسان رأيه.

ومثلما لا يبرهن التاريخ شيئا، فهو أيضا لا يعلم شيئا، وإن كان معلما حقا فتلاميذه –البشر– لا يهتمون بشرحه ويفضلون اللهو على متابعة محاضراته. وعندما يكون حكم البشر على البشر واضحا وقاطعا يهرب المحكوم عليهم حكما سلبيا إلى التاريخ دائما، ويفعلون ذلك وهم واثقون (وواهمون) أن الحكم سيكون لصالحهم.

العدالة الاجتماعية ونهاية التاريخ

المقصود بنهاية التاريخ أن النظام الرأسمالي الديمقراطي الليبرالي برهن أنه النظام الأفضل للحكم، فغيره من نظم وأيدلوجيات من اشتراكية وشيوعية وفاشية وغيرها فشلت، بينما النظم التي بنيت على أساس رأسمالي ديمقراطي ليبرالي كانت الأكثر ثباتا، وصار السعي إلى مثلها ظاهرة عالمية.

هذا الرأي طرح في مقالة (1989) ثم كتاب (1992) عنوانه «نهاية التاريخ» للأميركي من أصل ياباني، فرانسيس فوكوياما. وقد اشتهر الكتاب كثيرا ولقي اهتماما شبيها بكتاب ساموبل هنتنغتون «صراع الحضارات».

رد كثيرون على ما طرحه فوكوياما في حينه، وما يدعوني إلى العودة إليه هو الجانب المتعلق بالعدالة الاجتماعية، فقد قارن فوكوياما بين حال أجدادنا وحالنا وقال (ص 46): «في زمن أجدادنا، كثير من الناس العاقلين كان يمكنهم تصور مستقبل اشتراكي مشرق يتم فيه التخلص من الملكية الخاصة والرأسمالية، (...) اليوم، بالمقارنة، نواجه صعوبة في تخيل عالم أفضل بكثير من عالمنا الحالي، أو مستقبل لا يكون في جوهره ديمقراطيا ورأسماليا».

يهمني في هذه الكلمة الجزء المتعلق بالمقارنة. ولا أريد أن أعود إلى زمن أجدادنا بل إلى زمن والدينا فقط، وتحديدا ما تعلق بالعدالة الاجتماعية، وليس بالتقدم التقني.

في زمن والدينا كان التعليم مجانيا أو شبه مجاني. وكان الكثير من الآباء يعملون في أعمال دخلها ليس مرتفعا، والعائلات ذات عشرة من الأبناء والبنات كانت أمرا شائعا. ومع ذلك، أتم جميع الأبناء والبنات تعليمهم الجامعي في حالات كثيرة، وساهموا بدورهم في رفع مستوى معيشة عائلاتهم.

انقلب الوضع خلال جيل واحد. الأبناء الذين صاروا آباء يواجهون صعوبة في تعليم أبنائهم وبناتهم، مع أن الكثير من الآباء والأمهات يعملون برواتب جيدة، وعدد الأبناء والبنات لا يتجاوز ستة في أكثر الحالات. السبب هو كلفة التعليم التي أصبحت باهظة، حتى في المؤسسات التعليمية الحكومية التي كانت تقدم التعليم بكلفة قليلة أو مجانا.

وإذا نظرنا إلى الرعاية الصحية، فقد كان العلاج مجانيا أو منخفض التكاليف. أما اليوم فقد انتشرت المستشفيات الخاصة، ويعتمد كثير من الفقراء على الصيدلي للحصول على دواء بدل الذهاب إلى طبيب للتأكد من تشخيص المرض ووصف الدواء الأنسب. ومن ليس لديه تأمين صحي لا يقوى على دفع تكاليف الحصول على رعاية طبية، وخاصة العمليات، أو علاج الأمراض المزمنة، بل من لا يملك تأمينا قد لا يقبل المستشفى تقديم العلاج له.

أما امتلاك المسكن، فقد كان دائما مهما، وكثير من الناس اشتروا قطعة أرض وبـنوا بيتا لهم. الآن أسعار الأراضي مرتفعة، وصار صعبا شراء قطعة أرض لبناء بيت عليها، ثم بناء بيت يكون محكوما عادة بأنظمة تشترط أن تكون الواجهات الخارجية من حجر أبيض.

زمننا يدعو بإلحاح إلى تخيل مستقبل أفضل، وخاصة بعد ما شهده العالم الرأسمالي من أزمات في السنوات الأخيرة. على سبيل المثال، أزمة المساكن التي عجز من اشتراها عن تسديد أقساطها. وهناك أزمة المصارف التي انهارت، بعد أن قامرت بأموال الناس الذين أودعوا أموالهم لديها. وبدل أن تتحمل

البنوك عواقب قراراتها، أرغم المواطن دافع الضرائب على إنقاذ بنوك أخرى من الانهيار، بذريعة الحيلولة دون تدهور الأوضاع الاقتصادية أكثر.

وقد تم في مرحلة سابقة الترويج لتحرير الاقتصاد وبيع المؤسسات العامة من شركات ماء وكهرباء وخلافه. والحجة النظرية لذلك هو توسيع نطاق الملكية، بحيث يكون الإنسان العادي قادرا على امتلاك أسهم في الشركات. ولكن ما كان يجري بعد سنوات قليلة من الخصخصة هو أن ملكية الأسهم تنتهي في أيدي قلة من الأفراد والمؤسسات المالية.

في الآونة الأخيرة، بدأ الكثير من الناس النزول إلى الشوارع للاحتجاج على إجراءات التقشف التي تفرضها الحكومات، المسؤولة أصلا عن سوء إدارة اقتصاد البلاد. وتشعر الأغلبية هذه الأيام بعدم الأمان نتيجة الخوف من فقدان العمل، أو أن تستيقظ صباح يوم فتجد أن ما ادخرت من مال من أجل التقاعد، أو لتعليم الأبناء، قد ضاع أو فقد الكثير من قيمته.

خلاصة القول إن السنوات القليلة الماضية شهدت تكاثر الأدلة التي تقوض أسس المقارنة التي أجراها فوكوياما بين زمن الأجداد وزمننا، والمقارنة اليوم ترجح كفة زمن الآباء، وليس الأجداد فقط.

لا جدوى من الحنين إلى الماضي، فالعدالة الاجتماعية مطلوبة وضرورية الآن ومستقبلا. ولو بقيت الحال على هذا المنوال، فأنه يصعب تصور مستقبل لأبنائنا يكون أفضل من الحاضر السيئ.

(*) Fukuyama, Francis. 1992. The End of History and the Last Man. London: Hamish Hamliton.

الديمقراطية والإسلام: متعارضان؟

الديمقراطية كمصطلح تعني حكم الشعب، والمصطلح مكون من كلمتين إغريقيتين نظرا لممارسة الديمقراطية في المدن الإغريقية (اليونانية)، عندما كانت المدينة دولة أيضا. والديمقراطية آنذاك كانت مباشرة، بمعنى أن سكان المدينة يجتمعون ويقررون. أما في العصر الحديث، ونظرا لزيادة أعداد السكان واتساع مساحات الدول، لم يعد ممكنا جمع كل المعنيين في مكان واحد، ولذا استبدلت الديمقراطية المباشرة بأخرى غير مباشرة، أي اختيار السكان لممثلين عنهم في مجلس تتخذ فيه القرارات نيابة عنهم.

والانتخابات الدورية مظهر واحد من مظاهر الديمقراطية، ولا تكفي وحدها لاعتبار بلد ما ديمقراطيا، ففي كثير من الدول غير الديمقراطية قد تجرى انتخابات دورية لا يكون فيها سوى مرشح واحد، أو لا يحق للمؤهلين أن يرشحوا أنفسهم. ولذا لكي يكون بلد ما ديمقراطيا حقا، يجب توفر مجموعة من الأمور يلخصها روبرت دال (1971) بوجود مسؤولين منتخبين، ووجود انتخابات حرة ونزيهة، وحق شامل في الانتخاب (لا يستثنى السود مثلا كم حدث في الماضي في الولايات المتحدة)، والحق في الترشيح للمناصب المختلفة، وحرية التعبير، والحصول على معلومات بديلة، والاستقلال الذاتي للروابط.

وقد كُتب الكثير عن الديمقراطية وعملية الانتقال إليها. وعندما يتعلق الأمر بالعالمين العربي والإسلامي، نجد ادعاءات بأن الإسلام والديمقراطية لا

يتوافقان. وعدم التوافق يستخدم كتفسير لغياب الديمقراطية في الدول العربية والمسلمة. في المقابل نجد من يرفض هذا الادعاء، ويقول إن الديمقراطية يمكن أن تنشأ وتترعرع في بيئات مختلفة.

ويلمس الباحث في هذا الموضوع وجود أربعة اتجاهات في مسألة توافق/عدم توافق الديمقراطية مع الإسلام. ثلاثة منها تحاجج بعدم التوافق من منطلقات مختلفة. أما الاتجاه الرابع فلا يرى تعارضا.

في الاتجاه الأول الذي يقول إن الديمقراطية والإسلام غير متوافقين، نجد أفرادا وأحزابا. ويتم تبرير عدم التوافق من منطلق ديني والرجوع إلى آيات في القرآن الكريم. ومن الأفراد والأحزاب في هذا الاتجاه: أبو الأعلى المودودي (الهند/باكستان)، وسيد قطب (مصر) وحزب التحرير (فلسطين/الأردن).

في تبريره لعدم توافق الديمقراطية مع الإسلام يلجأ أبو الأعلى المودودي (1967) إلى آيات من القرآن وخاصة الآية 30 من سورة البقرة:

> وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ.

ويتحدث المودودي في اعتراضه على الديمقراطية عن مبدأ السيادة الإلهية ويقول إن جميع الأنبياء كانوا يطالبون بني البشر بالطاعة الخالصة لله، وإن وحدانية الله وسيادته كانتا أساس النظامين الاجتماعي والأخلاقي الذين جاء بهما الأنبياء (ص 158). وخلاصة حجج المودودي أن الإسلام نقيض الديمقراطية.

أما سيد قطب (1964)، فهو متفق مع المودودي في عدم التوافق بين الديمقراطية والإسلام، ويستشهد بأربـع كلمات هي «إن الحكم إلا لله» ترد في الآية 57 من سورة الأنعام:

قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ.

وقد ذهب سيد قطب إلى حد اعتبار المسلمين وغيرهم في حالة شبيهة بعصر الجاهلية. واعتبر الإسلام هو الحضارة بعينها.

جدير بالذكر هنا ولو خارج السياق قليلا أن كثيرين يعتبرون سيد قطب المنظر الأيديولوجي لجماعات العنف التكفيرية التي برزت في السبعينيات في مصر. ولكن آخرين ردوا عليه في حينه من بينهم المرشد العام للإخوان المسلمين في مصر، مأمون الهضيبي في كتاب بعنوان «دعاة لا قضاة» خطأ فيه تكفير المسلم.

أما حزب التحرير فإنه يكفي النظر إلى عنوان أحد منشوراته عن الديمقراطية، من تأليف عبد القديم زلوم (1990)، لتعرف موقف الحزب من هذه القضية: «الديمقراطية نظام كفر. يحرم أخذها أو تطبيقها أو الدعوة إليها». وجاء في مطلع المنشور أن «الديمقراطية التي سوقها الغرب الكافر إلى بلاد المسلمين هي نظام كفر، لا علاقة لها بالإسلام، لا من قريب، ولا من بعيد. وهي تتناقض مع أحكام الإسلام تناقضاً كلياً في الكليات وفي الجزئيات، وفي المصدر الذي جاءت منه، والعقيدة التي انبثقت عنها، والأساس الذي قامت عليه، وفي الأفكار والأنظمة التي أتت بها. لذلك فانه يحرم على المسلمين أخذها، أو تطبيقها، أو الدعوة لها تحريما جازما» (ص 2).

في الاتجاه الثاني الذي يدعي أن الديمقراطية والإسلام غير متوافقين نجد غير مسلمين، وخاصة من الوسط الأكاديمي، من أبرزهم، ويعد عميد البقية، برنارد لويس (2001) الذي يفسر عدم التوافق بأنه لا يمكن فصل الدين عن الدولة في الإسلام، خلافا لما حدث في العالم المسيحي، وما لم يتم هذا الفصل لا يمكن للديمقراطية أن تنشأ وتترعرع. أكاديميون آخرون يتفقون مع برنارد لويس ومن بينهم صامويل هنتغنتون (1991) في كتابه «الموجة الثالثة من الدمقرطة في أواخر القرن العشرين».

وثمة اتجاه ثالث يتحدث عن عدم توافق الديمقراطية مع الإسلام، ولكنه لا يلجأ إلى الدين لتفسير غيابها في العالمين العربي والإسلامي. وتفسير المنظرين في هذا الاتجاه يستند إلى نظريات التنمية، فالاعتقاد أنه لا يمكن للديمقراطية أن تنشأ إلا بعد الوصول إلى حد معين من التنمية وحد أدنى لدخل الفرد. وضمن هذا الاتجاه تجد تفسيرا يقول إن للديمقراطية متطلبات فكرية لا يمكن بدونها للديمقراطية أن تنشـأ (نزيه أيوبي 1995).

أما الاتجاه الرابع فلا يتفق مع الاتجاهات الثلاثة السابقة، ويقول كما أسلفنا إنه يمكن للديمقراطية أن تنشأ وتترعرع في بيئات مختلفة. ونجد ضمن هذا الاتجاه مسلمين وغير مسلمين، ومن هؤلاء جون ازبوسيتو (1995) الذي ألف كتبا عديدة دافع فيها عن الإسلام. وهناك أيضا وليام كوانت (2004) الذي يستشهد بمثال الهند كدليل على أن الديمقراطية ليست حكرا على العالم المسيحي.

من الواضح أن مشكلة الإسلاميين الكبرى مع الديمقراطية كانت تكمن في مسألة مصدر السلطات والتشريع، فعندما كان ينظر للديمقراطية على أساس أنها حكم الشعب، وأن الشعب هو مصدر السلطات، كان الإسلاميون يرفضون هذا المبدأ ويردون أن مصدر السلطات هو الشريعة، كما حاجج المودودي وقطب.

ولكن النظرة لطبيعة الديمقراطية تغيرت في أوساط دارسيها والمهتمين بها، وخاصة بعد أن حاجج جوزيف شومبيتر (1976) بأن الديمقراطية عملية إجرائية للتنافس بين الزعماء ومن بين أهدافها تجديد شرعية النخبة الحاكمة. ورغم أنها عملية إجرائية، إلا أنه لا يسمح للأغلبية بأن تفعل أي شيء تريده، كأن تصوت على إبادة أقلية ما.

ومع مرور الأيام أصبحت النظرية الإجرائية هي السائدة، ولذا يعتبر جون كين (1991) الديمقراطية عملية إجرائية يتقرر من خلالها من يخول بالحكم، وتنطوي على مجموعة من المبادئ منها المساواة وحق شامل في الانتخاب، وحكم أغلبية مع ضمانات للأقلية وحكم القانون وضمانات دستورية بخصوص الحريات (ص 168).

ومع أنه لا يزال بين المسلمين من يقول إن الديمقراطية والإسلام غير متوافقين، إلا أن الكفة رجحت نحو عدم وجود تعارض بدليل مشاركة جماعات إسلامية في الانتخابات التي جرت في بلادها، بدأت بحركة الاتجاه الإسلامي التونسية، بزعامة راشد الغنوشي، ثم جماعات الإخوان المسلمين في مصر والأردن وفلسطين والمغرب.

ويدل إقدام الحركات الإسلامية على المشاركة في الانتخابات على التراجع عن رأي تعارض الديمقراطية مع الإسلام. ولكن المشاركة أسفرت عن تولد شعورين متناقضين. فتجربة الجزائر عام 1991 و1992 وتجربة حركة حماس عام 2006 تعتبران بالنسبة للإسلاميين مثالا على أن الديمقراطية مرفوضة عندما تسفر عن نتائج غير متوقعة للحكام والسياسيين المنادين بفضائل الديمقراطية.

أما غير الإسلاميين فيتهمون الإسلاميين بأنهم غير ديمقراطيين، ولا يمكن ائتمانهم لأنهم سيغيرون طبيعة النظام بعد تولي الحكم، وبذا يكونون قد استخدموا الديمقراطية لتحقيق غاية منافية لها. وعلى هذا الأساس نجد أن الأحزاب الإسلامية في الدول العربية تعاني من هذا الشك، من خلال إجراءات حكومية إما تحظرها وتمنعها من المشاركة في الحياة السياسية، أو تهدف إلى الحد من نسبة تمثليها في المجالس النيابية. وفي حالة حركة حماس في فلسطين، كان أحد نتائج فوزها بالأغلبية حصارا عالميا لا يزال مستمرا، وأسفر أيضا عن انقسام فلسطيني لا تزال تفاعلاته مستمرة حتى الآن.

العدد 39: 2009/9

700 قناة في زمن احتكار السلطة

ورد في التقرير السنوي لاتحاد الإذاعات العربية عن العام الماضي 2010 أن عدد القنوات التلفزيونية الفضائية أكثر من سبعمئة قناة (733)، أغلبيتها تابعة للقطاع الخاص. بعضها عام في ما يبث، وآخر مختص.

ولكن هذا العدد الهائل من القنوات لم يكن انعكاسا لتعددية سياسة وفكرية، فقد اختلف عدد القنوات من محدود تابع للحكومة، إلى عدد كبير دون حصول تغيير في الواقع السياسي واحتكار السلطة. فماذا تقدم للمشاهدين هذه القنوات العديدة؟

القنوات الإخبارية تزعم دائما أنها تمارس عملها بمهنية، ولكن ليس للمهنية مفهوم واحد واضح، ولذا هي ذريعة للتبرير، مناسبة في كل الظروف. ومن الظواهر الجديدة في القنوات الإخبارية الاهتمام بطريقة عرض الإخبار أكثر من محتواها، فلو كان الاهتمام بالمحتوى أكبر، لما كان ضروريا أن يقدم الأخبار اثنان، رجل وامرأة عادة، ولما قدمت للمشاهد الأخبار بينما «يكزدر» مقدمها أو مقدمتها أمام شاشة ضخمة.

المهرب من الترفيه الإخباري بالبث الحي والمباشر هو القنوات الغنائية التي تريد أن تجعلك في حالة طرب دائم وأن تعيش الحب بحلوه ومره، وبمختلف اللهجات العربية، كل ساعة من ساعات اليوم.

وهناك قنوات مختصة بإعادة بث المسلسلات التلفزيونية والأفلام، فإذا فوت حلقة واحدة، أو مسلسلا كاملا، لا داعي للقلق. سوف تجد ضالتك على إحدى هذه القنوات.

أما القنوات الدينية، فكثير منها يبث بشكل متواصل تلاوات من القرآن الكريم، وأخرى تبث الدروس والمواعظ، وتقدم الفتاوى على الهاتف.

أيضا هناك قنوات ليست متخصصة كالمذكورة أعلاه، ولكنها تعتمد كثيرا على برامج الحكي (الفاضي في كثير من الأحيان). انتقل من قناة إلى أخرى تجد مشاهير وغير مشاهير يتكلمون. ولا تنس طبعا برامج الطبخ، ووصفاتها التي تسيل اللعاب وتزيد الوزن.

يتوقع التقرير أن يزيد عدد القنوات في المستقبل. يذكرني هذا بقول إحدى الشخصيات الكرتونية ما معناه: القنوات عديدة ولكن ما تمكن مشاهدته قليل. لكن حتى لو كان المحتوى جيدا في كل القنوات، ليس لديك ما يكفي من الساعات في اليوم لمشاهدة كل مفيد. ومن يمضي وقتا طويلا في متابعة التلفزيون فهو يسير على طريق الخمول الذهني، وربما السمنة نتيجة قلة الحركة، وتسلية النفس بالأكل أثناء المشاهدة.

قيل في مرحلة سابقة إن الدين أفيون الشعوب. في عصرنا الحالي أصبح التلفزيون الأفيون البديل.

العدد 61: 2011/7

أدوار الصحافة: الحاجة إلى اليقظة

من الكليشيهات الشائعة في الحديث عن الصحافة أنها السلطة الرابعة، وهذه سلطة غير رسمية تضاف إلى ثلاث رسمية هي التنفيذية والتشريعية والقضائية. ويفترض أن السلطة الرابعة تمارس نوعا من المراقبة على الثلاث الأخرى وتحاسبها. هذا هو المفترض أو الموقف النظري، ولكن الواقع مختلف كثيرا عن ذلك.

الواقع يقول إن الصحافة (الإعلام بمختلف وسائله) سلطة رابعا فعلا، أي أنها جزء من نظام الحكم في بلد ما، فتكون ديمقراطية بقدر ديمقراطية البلد، أو لا ديمقراطية بقدر دكتاتورية الحاكم.

حتى في الدول الديمقراطية لا تبتعد كل وسائل الإعلام عن أهل الحكم، ولذا هناك صحف تؤيد الحاكم قلبا وقالبا، وخاصة في القضايا المختلف عليها مع دول أخرى، سواء في حالات الخلاف الساخن، كالحرب، أو مجرد الخلاف على المصالح في مؤسسات التعاون بين الدول كالاتحاد الأوروبي.

إذا كان الأمر كذلك في الدول الديمقراطية، فهو أسوأ في الدول غير الديمقراطية، وبالتالي عندما تتغنى الصحف ووسائل الإعلام في العالم العربي بأنها سلطة رابعة، يجب أن نكون أذكياء ونهز رؤوسنا موافقين ونقول: «نعم، أنتم كذلك حقا».

للصحافة أدوار متعددة، بعضها إيجابي تجب حمايته والدفاع عنه، وبعضها سلبي يجب انتقاده بدون تردد. الدور الإيجابي ينتج عن جعل الحقيقة هي الغاية، الحقيقة في بلد الوسيلة الإعلامية وفي الدول الأخرى. والأدوار السلبية تنتج عن جعل الغاية والوسيلة الترويج لنظم حكم معينة، أو لأشخاص معينين، أو الترويج لسلوك استهلاكي، والاهتمام بالمشاهير، وخاصة أهل الفن.

ومثلما نشأت في الماضي حاجة لجعل الصحافة «سلطة رابعة» تساعد على الرقابة والمحاسبة، هناك حاجة جديدة لمراقبة ومحاسبة «السلطة الرابعة» وزميلاتها الثلاث. أفضل وسيلة لذلك ليس سلطة خامسة (المنظمات غير الحكومية مثلا) بل نظام حكم ديمقراطي، فهذا النظام على علاته الكثيرة ينطوي على خاصية مفاجأة من هم في السلطة وأصحاب المال بأنهم ليسوا أكبر من أن يحاسبوا على ما يفعلون.

هذا النوع من المفاجآت تعيشه بريطانيا هذه الأيام [2011]، فهي تشهد ضجة سياسية إعلامية لا تزال تفاعلاتها مستمرة، وجددت النقاش حول دور وسائل الإعلام وممارساتها، والعلاقة بين من يملكونها والساسة والأحزاب ومؤسسات أخرى من بينها الشرطة.

الضجة ناتجة عن أعمال تجسس على الخصوصيات الشخصية قامت بها صحيفة اسمها «أخبار العالم» (نيوز اوف ذا وورلد)، يملكها روبرت ميردوك، صاحب العديد من الصحف ووسائل الإعلام في مختلف أنحاء العالم.

القضية قديمة ولم تنجح محاولات دفنها، وهي الآن قضية نقاش عام، وأسفرت حتى الآن عن إغلاق الصحيفة واستقالة بعض كبار المسئولين في إمبراطورية ميردوك الإعلامية، واستدعائه إلى لجنة نيابية.

لكن النتائج الآنية، كالاعتذارات والاستقالات، ليست الأمر المهم في القضية. الأهم وجود ضوابط تجعل وسائل الإعلام تعمل لا كسلطة رابعة غير رسمية متواطئة مع السلطات الأخرى، ولا كسلطة منفصلة بيد أصحاب المال

تجعل سلطات الدولة الثلاث تسعى إلى رضاها، وتتصرف كما يحلو لمالكيها أو صحفييها.

وإذا عدنا إلى عالمنا العربي، الذي تشهد دوله تحركات للمطالبة بالتغيير، وتحولت التحركات إلى خبر يتابع بتغطية إعلامية مكثفة، يجب ألا ينسينا حديث وسائل الإعلام عن الثورات والتغيير ضرورة أن تكون نظم الحكم القائمة والجديدة ديمقراطية، وضرورة أن نبقى يقظين دائما إزاء الأدوار التي يؤديها الإعلام.

إن توجيه النقد لوسائل الإعلام عندما تمارس دورا سلبيا لا يعني قبول مبدأ تقييد الحريات الإعلامية، وإغلاق المكاتب أو الاعتداء على الصحفيين. لا غنى عن الصحافة، ولا غنى للصحافة عن الحرية مثلما لا غنى للإنسان عن الحرية.

العدد 62: 2011/8

الإعلام: عندما تكون الحقيقة بين الضحايا

حدثت في بريطانيا عام 1989 (15 نيسان/أبريل) كارثة إنسانية في ستاد هلزبرا لكرة القدم قبل بدء مباراة نصف النهائي بين فريقي لفربول ونوتنغهام فوريست. نتجت الكارثة عن اكتظاظ في مناطق مخصصة لمشاهدة المباراة محمية بسياج حديدي. أدى الاكتظاظ إلى انهيار السياج، ووقوع مشجعي نادي لفربول على بعضهم بعضا، ومقتل ستة وتسعين من المشجعين وإصابة بضع مئات منهم.

وبعد أربعة أيام فقط (19 نيسان/أبريل 1989) صدرت صحيفة «ذا صن» (The Sun) بعنوان على صفحتها الأولى يزعم أن الصحيفة تنشر «الحقيقة» المتعلقة بما حدث في ستاد هلزبرا. وما نشر في ذاك اليوم حمّل المسؤولية عما جرى للمشجعين، واتهم بعض المشجعين بنشل جيوب الضحايا والاعتداء على الشرطة والتبول على شرطي يقوم بعملية تنفس صناعي لأحد الضحايا. وقد شعر أهالي الضحايا والمشجعين بالغضب، وقاطعوا الصحيفة، وقاموا بحملة لمعرفة الحقيقة ورفع الظلم والتشوية الذي وقع على الضحايا والمشجعين.

وبعد أكثر من تحقيق، تم الشهر الماضي (أيلول/سبتمبر 2012) إعلان نتائج تحقيق آخر أكد أن مزاعم صحيفة «ذا صن» كانت أكاذيب، ولم يكن المشجعون مسؤولين عما جرى، بل تقع المسؤولية على أكثر من جهة، بما في ذلك

الشرطة وخدمات الإسعاف. وصدرت اعتذارات من رئيس وزراء لم تقع الكارثة في عهده، ومن الشرطة المعنية، ورئيس تحرير «ذا صن» في ذلك الحين.

وهكذا مرت ثلاث وعشرون سنة للحصول على الحقيقة التي تنصف الضحايا والمشجعين، وتعيد للحقيقة اعتبارها، بدل أن تكون الأكاذيب متداولة على أنها حقيقة لأن هذه الصحيفة أو تلك الإذاعة، أو تلك القناة الإخبارية هي من نشرها أو أذاعها.

وهناك أيضا أمر آخر جدير بالإشارة إليه، فأهالي ضحايا هلزبرا سيكون لديهم وسائل قانونية تجعل من الممكن تحديد المسؤول عن الكارثة، أفرادا وأجهزة، وما يترتب على ذلك من استقالات أو تعويضات، أو استخلاص الدروس حتى لا تتكرر المأساة وأسلوب التعامل المشين معها. وهذا ضروري لأنه ظلم مضاعف أن يتم التعامل مع الكارثة على أساس «عفا الله عما مضى».

كثير من الضحايا في عالمنا العربي يموتون فرادى وجماعات ولا يجد أهاليهم الوسيلة للدفاع عن سمعتهم عندما يجري تشويهها. وكثير من الضحايا تُعرف الحقيقة في شأن المسؤولية عن قتلهم، ولكن لا أحد يحاسب على ما فعل. وأشهر الحالات في هذه الصدد مذبحة صبرا وشاتيلا عام 1982، التي مرت ذكراها السنوية الثلاثون الشهر الماضي [2012/9]، ولا يزال لم يحاسب أحد عليها، ولا يتم اعتبارها جريمة ضد الإنسانية كما تستحق.

إذا كان ضحايا هلزبرا والمشجعون عوملوا بطريقة ظالمة في دولة ديمقراطية، وإذا كانت صحيفة تتصرف بالطريقة المشينة هذه في بلد ديمقراطي لا يعاني من نقص في الحريات الشخصية والعامة، بما في ذلك حرية الصحافة، فلكم أن تتخيلوا ماذا يمكن لوسائل الإعلام بكل أنواعها، أن تفعل في دول غير ديمقراطية، وتفتقر إلى الحريات الأساسية. ولكم أن تتخيلوا ما يمكن أن تفعله في حالات حرب أو نزاعات داخلية.

من المؤسف أن نشر الأكاذيب صار ممكنا أكثر بعد تعدد القنوات التلفزيونية، ووجود وسائل أخرى مثل يوتيوب وفيسبوك، حيث تنشر في الأول فيديوهات مفبركة، وفي الثاني الأكاذيب بالكلمة أو الصورة، ولم يعد الإنسان قادرا على معرفة من قال هذا القول حقا، وهل صورة الضحية الفلانية صورة حقيقة، أم انتزعت من سياق مختلف، زمانا ومكانا، لكسب التأييد لهذه القضية أو تلك.

ولكن يظل الأمل في أن للحقيقة سمة العودة لتطفو على السطح رغم محاولات إغراقها وطمسها بالأكاذيب، حتى عندما تكون المحاولات بالاعتماد على مهنية زائفة تبرر نشر الأكاذيب من خلال تطبيق مقولة غير صحيحة، وهي «ناقل الكفر ليس بكافر»، والصحيح أن ناقل الكفر أسوأ من الكافر، مثلما أن تاجر المخدرات أسوا من متعاطيها فالثاني يضر نفسه، أما الأول فيضر أكبر عدد ممكن من الناس لترويج بضاعته. وبالنسبة لحقوق الضحايا، الأمل يكمن في الحكمة التي تقول ما ضاع حق وراءه مطالب.

العدد 76: 2012/10

عصر الكمبيوتر

قبل عقدين من الزمن [منتصف الثمانينيات] شاهدت رسما كاريكاتيريا في مجلة للمهندسين. جهاز كومبيوتر ضخم يطبع، والأوراق متكوّمة قربه. الموظفون جالسون في المكتب على مقربة من الحاسوب. بعضهم يدخن الأرجيلة (الشيشة)، وبعض آخر يلعب طاولة الزهر (النرد). التعليق المصاحب للرسم كان: «عصر الكومبيوتر». والسخرية الواضحة في الكاريكاتير أن عصر الكومبيوتر لم يغير شيئا في طباع البشر، على الأقل في أماكن العمل.

طبعا تطورت أجهزة الكومبيوتر كثيرا منذ عشرين سنة، ودخلت في الكثير من الأعمال، ويصعب الآن تصور أعمال لا يستخدم فيها الكومبيوتر، خاصة في الصحافة، على الأقل لكتابة النصوص. ولكن عصر الكومبيوتر الذي عايشته في غرفة أخبار مؤسسة إعلامية لا يختلف عن العصر الذي شخصه رسم الكاريكاتير. والمشهد كالتالي.

هنالك جهاز كومبيوتر على كل مكتب. ولكن الأجهزة إذا استخدمت، فإنما للغرض غير الأساسي فيها. فهناك تجول على الإنترنت، وطبع نصوص منها، ولكن المتجولين في فضاء الإنترنت يكتبون النصوص باليد بالقرب من جهاز الكومبيوتر، لا باستخدام برنامج إعداد النصوص في نفس الجهاز. وهناك استخدام للبريد الإلكتروني المجاني، وتخاطب مع أناس بعيدين المئات من الأميال، ولكن لا تخاطب مماثلا بين فريق العاملين في ذلك اليوم.

ومن استخدامات الصحفيين الأخرى لأجهزة الكومبيوتر الاستماع إلى الأغاني، من خلال الذهاب إلى مواقع خاصة بالأغاني، فيستمع أحدهم إلى شعبان عبد الرحيم يتحدث عن جنون البقر والبشر، وآخر يفضل الاستماع إلى عبد الحليم حافظ، والهوى هوايا. تنطلق الأغاني ويتحول مكان العمل إلى مقهى شعبي، ولا ينقصه إلا أن ينادى على صبي ليأتي بثلاثة شاي واثـنين قهوة.

أحيانا يسعى أحدهم إلى التظاهر بالحرص على مشاعر الآخرين، فيسأل المشكوك في امتعاضه مثلي: «أيضايقك الصوت؟» فتعرف أنك إن قلت نعم، نكدت على السائل يومه، وسيخاصمك بقية العمر. أما الجواب الذي يتوقع، والمخالف للحقيقة، فهو «لا، لا يضايقني الصوت». وتواصل العمل بصمت.

التلفزيونات أيضا توضع في غرف الأخبار لاستقبال القنوات الإخبارية حتى تمكن متابعة حدث ما قد يتطور، وتكون هناك كاميرات تتابعه أثناء حدوثه، فيمكن للعاملين في غرفة الأخبار متابعة الحدث أولا بأول. لكن القنوات التي تتابع بشغف هي تلك التي تعرض أفلاما قديمة، بما في ذلك أفلام إسماعيل ياسين، أو مسلسلات درامية. وفي المواسم الرياضية، هناك متابعات للمباريات بين هذا الفريق أو ذاك، أو بين بلد وآخر. ينفعل المتابعون للمباراة طبعا، ويزداد الضجيج في المكتب، ويكثر الإفتاء في الرياضة من قبل أناس قليلي الحركة.

هذا هو عصر الكومبيوتر والقنوات التلفزيونية الفضائية كما عايشته في غرفة الأخبار.

العدد 2: 2006/7

الحضاريون والقيم المزيفة

إهانة اللغة والمهن الإنسانية والقيم

في العالم الغربي المتحضر قلبت معاني الكلمات لتبرير ما لا يبرر. فإسرائيل تقوم بعمليات جراحية في لبنان وفلسطين. يا لها من إهانة للغة ولمهنة الطب الإنسانية التي تجري الجراحة لإنقاذ حياة الناس وشفائهم من الألم. مهزلة بل مأساة أن توصف بالعمليات الجراحية الأعمال التي تستخدم فيها المدافع والدبابات والطائرات وتسفر عن قتل البشر، وهدم البيوت، وتدمير الجسور.

العالم الغربي المتحضر لا يصدق العرب عندما يقولون إن صغارهم وشيوخهم، نساءهم ورجالهم، يقتلون بدون حساب من قبل إسرائيل. لا بد أن تكون المجزرة كبيرة وفظيعة، كمجزرة قانا الأولى والثانية، وان تكون كاميرات التلفزيون موجودة لتصور الضحايا، وعندئذ قد يتم الإعراب عن أسف مزيف، ويتبع الجرح بالإهانة عندما يقول القتلة إننا لا نستهدف المدنيين.

عندما تظهر أم لبنانية أو فلسطينية أو عراقية منكوبة على شاشات التلفزيونات الغربية لا تجد من يتعاطف معها، فهي لا تتحدث الإنجليزية، وترتدي لباسا مختلفا، وتضع في أكثر الحالات غطاء على رأسها، والتجاعيد تملأ وجهها، وقد لا تكبت بكاءها، وقد تقول إن فقدانها الأعزاء على قلبها لن يثنيها عن التمسك بحقوق شعبها والإيمان بعدالة قضيته، فيترجم كلامها بحيث يظهر أن كلامها عدواني رغم مصيبتها.

وفي إطار قلب المعاني والقيم، يصبح الاعتداء على شعب بكامله دفاعا عن النفس. والهجوم الشامل على لبنان وشعبه هو بمثابة مخاض كما تقول وزيرة الخارجية الأميركية كونداليزا رايس. المخاض فيه ألم شديد للأم، ولكنه يهب الحياة، ويجلب السعادة. ولكن المخاض الذي تتحدث عنه رايس يهب القتل والتدمير بالجملة.

والقنابل الأميركية ذكية. طبعا القنابل لا عقل لها، ووصفها بالذكية إهانة أخرى للغة ولصفة يتحلى بها الإنسان، فلو كانت القنابل ذكية لرفضت أن تدمر البيوت على رؤوس من فيها، وأن تحول الأطفال والنساء والرجال إلى أشلاء. ولا جدوى من ذكاء هذه القنابل عندما توضع في أيدي أغبياء لا يقيمون وزنا لحياة الإنسان عامة، والعربي خاصة.

في الاتحاد قوة، إلا في حالة القادة العرب

الطرف الضعيف في صراع ما يلجأ إلى من قد يؤيده، إما إيمانا بعدالة قضيته، أو لوجود قواسم مشتركة معه. ومن خلال هذا الدعم يزداد الضعيف قوة ويتعزز وضعه مقابل خصمه. وثمة حكمة في بيت شعر يقول:

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا = = وإذا افترقن تكسرت أفرادا

هذه البديهية أثبت القادة العرب عكسها، فإن تجمعوا وجدتهم يحجمون عن ممارسة الشجاعة الجماعية ويميلون نحو قبول الهوان الجماعي. عندما تسعى فلسطين إلى دعم عربي، فان ما تحصل عليه هو ضغط لتقديم التنازلات.

ومع مرور السنين، تدرجت الأمور من كون القضية الفلسطينية قضية كل العرب، إلى قضية تعني الفلسطينيين ولا أحد غيرهم. وبعد اتفاق أوسلو، عمل القادة العرب بمنطق المثل الشعبي «مفيش حد أحسن من حد»، وبدلا من دعم فلسطين لتعزيز وضعها أمام الخصم طرحت مبادرة سلام باسم العرب جميعا.

وحتى مبادرة السلام العربية [2002] لم تجد في إسرائيل والولايات المتحدة من يوليها أي اهتمام، وبقيت حبرا على ورقها كغيرها من المبادرات.

ولم يشعر طارحو المبادرة بغضب أو إهانة. وعندما شنت إسرائيل على شعب لبنان عدوانا شاملا، سارع القادة إلى الحديث عن مغامرين، واجتمع وزراء الخارجية العرب ولم يتفقوا على شيء، وترك شعب لبنان وحيدا. وهكذا يتضح أن قابلية القادة العرب للرضى بالهوان الجماعي أعمق بكثير مما يتصوره العقل.

جيلا بعد جيل

ها هو جيل عربي جديد يرى بأم عينه أن إسرائيل تتحدث عن السلام كثيرا، ولكنها تمارس العدوان. واستمرت في فعل ذلك حتى بعد اتفاقات السلام مع مصر والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية. وحتى بعد طرح مبادرة سلام عربية في القمة التي عقدت في لبنان [2002]، لم تتوان إسرائيل عن الاستفراد بالفلسطينيين، وهي تدخل مدنهم وتخرج منها كما تشاء وتقوم فيها بعمليات جراحية لا تستهدف المدنيين، والغريب أن الفلسطينيين يجدون جثثا لأطفال ونساء في البيوت المدمرة.

ثم جاءت إسرائيل بجبروتها إلى لبنان [2006] لتعلم اللبنانيين، ومن خلالهم بقية العرب، درسا يرفض العرب أن يتعلموه رغم إعادة الدرس مرارا.

لا أحد متحضرا يمكن أن يقبل أن تكون قيمة حياة إنسان أكثر من آخر. ولا أحد متحضرا يمكن أن يصدق أن هناك شعبا يستحق الأمن والسلام أكثر من شعب آخر. ولا أحد متحضرا يمكن أن يصدق أن بعض الشعوب، وخاصة العربية، لا تفهم إلا لغة القوة.

العدد 3: 2006/7

عـود نـديات

لا تزال الياسمينة على باب الدار

غلاف العدد الأول من **عـود الـنـد** كان صورة لياسمينة حقيقية، تقف على باب الدار، وترحب بالساكن والمار بعطر لا يشمه إلا من يقترب منها. وكان فأل الياسمينة فألا حسنا، فقد استقبل القراء والكتاب **عـود الـنـد** بالترحاب. واشتد عودها، وفاح عطرها عددا بعد عدد. ومع صدور العدد العاشر بدا واضحا أن **عـود الـنـد** حجزت لها مكانا في رحلة تدوم عاما آخر على الأقل. ودعني، عزيزي القارئ، عزيزتي القارئة، ألخص سمات **عـود الـنـد**:

** مجلة تصدر في موعد محدد من كل شهر، ومفتوحة للقارئ والكاتب، ولا تضع شرطا على أحد للكتابة في المجلة أو قراءة أي صفحة من صفحاتها.

** مراجعة كل النصوص وتطبيق ضوابط جودة، تشمل مراجعة النص إملائيا ونحويا، واستخدام علامات التنقيط بشكل صحيح، والتحقق من صحة المعلومات، كنسب بيت شعر إلى شاعر ما، أو كتاب إلى مؤلف ما، والتأكد من أن النص ليس منشورا في موقع آخر.

** مفتوحة للمبتدئ والمحترف، وقد توفر هذا المزيج من الكتاب في كل عدد، فهناك من كتب مرة واحدة واكتفى، وهناك من كتب بانتظام، فصار له مريدون.

** الرد على رسائل القراء والكتاب، وتم ذلك أحيانا رغم أن الرد على الاستفسار متوفر من خلال الاطلاع على صفحات باب أساسيات.

ومن علامات تعاملنا باحترام مع الجميع ما يلي:

** نادرا ما بعثنا أكثر من رسالة واحدة في الشهر، فنحن حريصون على عدم إزعاج أحد برسائل متكررة.

** أننا نتعلم من الأخطاء والمشكلات، وخاصة التقنية، ولذا لدينا موقع رديف، وأغلقنا الثغرات التي أدت إلى استغلال **عـود الـنـد** لإرسال رسائل لقرائها.

ومن سمات **عـود الـنـد** المهمة أنها لم تستخدم تصميما معتمدا على قالب مجاني، فهذا يجعل المواقع تتشابه، وتكون الصفحات مكدسة بالكثير من الأبواب والاستطلاعات والإعلانات. والتصميم المعتمد في المجلة بسيط، وغايته عرض المحتوى بيسر وسهولة، لأن النص هو الأهم في **عـود الـنـد**. وثمة سمة أخرى تتمثل في التعاون مع الفنانين التشكيليين، الذين تزين لوحاتهم غلاف المجلة، وتكون البوابة التي يجد المرء بعدها روضة غناء.

وأود أن اشكر العشرات، قد أنسى بعضهم لو حاولت حصر الأسماء هنا، الذين شاركوا في دعم **عـود الـنـد** بشكل أو بآخر: بالكتابة، أو بالموافقة على نشر لوحاتهم، أو الرسوم الكاريكاتيرية، أو كتبوا عن صدور أعدادها في الصحافة، أو وضعوا رابطا لها على مواقعهم أو مدوناتهم، أو اختاروا مادة للنشر في باب مختارات، أو دققوا بعض النصوص. وأشكر أيضا كل من قرأ المجلة، وكل من أرسل رسالة، فمن خلال الرسائل والتعليقات تتجدد الطاقة فينا، ويسعد بها الكتاب والكاتبات.

ربما أكثرت الحديث عن معلم مرور سنة على صدور **عـود الـنـد** قبل المناسبة وبعدها، وهذه اللهفة طبيعية، فالجهود المبذولة من أجل نجاح هذه

المبادرة ليست جهودا بسيطة، وثمة شبه بينها ولهفة والدين على الاحتفال بالعيد الأول لميلاد الطفل البكر. ولا يلامان في هذه الحالة، بل نشاركهما الفرحة. ما أعرفه يقينا أن **عـود الـنـد** مستمرة في الصدور عاما آخر على الأقل، بالمستوى نفسه من الجودة، والالتزام بموعد الصدور، والروح المنفتحة على التعاون مع المحترف ومد يد العون للمبتدئ، لتكون تجسيدا لحكمة: «أن تشعل شمعة خير من أن تلعن الظلام».

العدد 13: 2007/6

عـود الـنــد والعامية

تواجه **عـود الـنـد** من حين لآخر مسألة نشر نصوص بالعامية. ونحن من حيث المبدأ من أنصار الكتابة بالفصحى الحديثة، ولكن لدينا من المرونة ما يكفي، إذ أننا ندرك أن للتعبير بالعامية مزايا تفقد عندما تستخدم الفصحى. ولذلك، لا نتدخل في أحاديث الشخصيات في نص ما عند نشره. ونشرنا في الماضي نصين بالعامية اللبنانية عندما تعلق الأمر بشهادتي مهجرتين أثناء العدوان على لبنان قبل عام [2006]. وخلافا لذلك نرفض آسفين العروض لنشر نصوص مكتوبة بالعامية.

من الأسباب الأخرى لاستخدام الفصحى أن العامية في الأردن مثلا (وهناك أكثر من عامية في كل بلد) لن تكون مفهومة في المغرب، والعكس صحيح. ولذا من باب الحرص على فهم الجميع للنصوص المنشورة في **عـود الـنـد**، وحرصا على اللغة العربية الفصحى من هيمنة العامية واللغات الأجنبية، سنبقى على السياسة التي اتبعناها حتى الآن.

بمعزل عن النشر بالعامية، لنا عتاب على من يرسلون لنا نصوصا منشورة في مواقع أخرى رغم أن لدينا سياسة معلنة ومكتوبة بحروف كبيرة على نموذج إرسال النصوص عبر الموقع. لا نطمح لأن نكون موقعا يتجدد كل لحظة، وينشر

النصوص كما ترده. وتبقى عملية التأكد من نشر النص في **عـود الـنـد** فقط مستمرة حتى اللحظات الأخيرة قبل صدور العدد. فلنكن جميعا شركاء في الحفاظ على مستوى المادة الثقافية، وعلى مستوى المنشور في الإنترنت.

أخيرا أجدد الترحيب بالراغبين في النشر في المجلة وفق المواصفات المذكورة في صفحة «كل ما تريد أن تعرفه عن **عـود الـنـد** والنشر فيها».

العدد 15: 2007/8

عـود الـنــد للشابات أيضا

استقبل العدد الماضي، السادس عشر [2007/9]، بترحاب عبر عن نفسه بزيادة في تفاعل القراء مع المجلة، وتمثل ذلك في التعليقات المرسلة للكاتبات والكتاب مباشرة أو التي تركت للنشر على الموقع.

في هذا العدد [17: 2007/10] تجربة جديدة وهي استخدام الملفات الصوتية، تجدها عزيزي القارئ، عزيزتي القارئة، في التقرير الأدبي الخاص بـ **عـود الـنــد** عن جولة الشاعر تميم البرغوثي في عدد من المدن الفلسطينية. وننظر في استخدام الملفات الصوتية (والمرئية أيضا) في الأعداد القادمة.

وفي هذا العدد إضافة جديدة أخرى وهي استطلاع رأي، وقد وضعنا استطلاعا مرتبطا إلى حد ما بالتقرير الأدبي الخاص. طبعا يجب أن نتذكر أننا حريصون على تحقيق التوازن بين النص والتقنيات والبرمجيات. ستبقى الأولوية للنص: للكتابة والقراءة. ولكننا منفتحون على زيادة درجات التفاعل مع المجلة.

وأضفنا لترويسة المجلة كلمة الشابات تأكيدا منا على أن **عـود الـنــد** موجهة للشابات مثلما هي موجهة للشباب، فقد لُفت نظرنا إلى غياب كلمة الشابات. واقترح علينا أن نحذف كلمة الشباب فتوصف **عـود الـنــد** بأنها مجلة ثقافية، أو تضاف كلمة الشابات إلى جانب الشباب. صحيح أن الشباب

تعني الجنسين، وصحيح أننا نقول الشابات والشباب في الصفحات الخاصة بالتعريف بـ **عـود الـنــد**، ولكن من حق الشابات ألا يذبن في صيغة الجمع. وللعلم أذكر بأن أعداد **عـود الـنــد** صدرت بمساهمات نوعية من الكاتبات. وكان عدد الكاتبات يتساوى مع عدد الكتاب، وأحيانا يفوقه، كما الحال في هذا العدد. وبكل تأكيد نحن مجلة لا تميز لا على أساس الجنس أو أي أساس آخر.

العدد 17: 2007/10

شركاء في الترويج للثقافة الراقية

جميل أن نعلم أن بعض من سبق لهم نشر أعمالهم في **عـود الـنـد** يوصون زملاءهم أو زميلاتهم بالنشر في المجلة. وتوصف **عـود الـنـد** في التعليقات التي تردنا بالنافذة المهمة، والتجربة الجادة، وما شابه ذلك. وبكل تواضع نقول لم تكن الصيغة التي خرجت بها **عـود الـنـد** وليدة الصدفة، بل هي عصارة تفكير في الأمر فترة طويلة، وضعت في خدمته خبرة صحفية لا يستهان بها.

ولذا ليست صدفة أن نتبنى سياسة الرد على الرسائل، وردنا ليس تلقائيا. ستبحث كثيرا عزيزي الكاتب/القارئ، عزيزتي الكاتبة/القارئة، عن الجهة التي ترد على رسائلك أو استفساراتك. فثمة مؤسسات ذات مقار وطواقم من الموظفين والموظفات تراسلها ولا تتلقى ردا.

وليست صدفة أن نعتمد سياسة مراجعة النصوص لأن الجودة تتطلب ذلك. أسهل علينا أن نتبنى قالبا جاهزا، يمكّن الكاتب من دخول الموقع ونسخ موضوعه ونشره خلال ثوان. ولكن ليس هكذا ترتقي حال الثقافة، ولا كان مقصودا أن تستخدم الإنترنت لنشر الكثير من الغث والقليل من السمين.

يمكن أي إنسان أن يحصل على مدونة مجانية، ويكتب فيها ما يريد. ولكن هل جربت زيارة المدونات المجانية، وشاهدت تدخل الإعلانات في

متعة القراءة؟ هل شاهدت الأخطاء الإملائية والنحوية والتنقيط العشوائي للنصوص؟ لو قدمت يوما طلب عمل وطُلب منك نماذج من كتاباتك، هل ستكون واثقا من أن ما نشرته في المواقع التي لا ضابط جودة فيها سوف يعطي الانطباع الحسن عن جودة كتابتك؟ نصك المنشور في **عـود الـنــد** لن يخذلك من هذه الناحية.

وثمة ملاحظة جديرة بأن تقال: الكمال لله وحده. لا يعني تطبيقنا لمعايير جودة، كالتدقيق الإملائي والنحوي، أننا نزعم أن كل صفحة من صفحات كل عدد من أعداد المجلة خالية من أي خطأ، إذا لا يمكن إلا أن تخفق العين في رؤية كل شيء. ولكن خطأ هنا أو هناك لا ينتقص من مجمل الجودة التي تتميز بها **عـود الـنــد**، المجلة التي ترحب بالمبتدئين الراغبين في النشر في مكان يرعاهم، وبالمحترفين الذين يريدون النشر في منبر راق.

أخيرا ليس من عادتي أن الفت النظر إلى موضوع بعينه، ولكن لكل قاعدة استثناء، فصدور هذا العدد [16: 2007/9] يتزامن مع الذكرى السنوية العشرين لرحيل ناجي العلي، رسام الكاريكاتير الفلسطيني الذي اغتيل في لندن عام 1987. في هذا العدد ملف بسيط استخدمنا فيه قصاصات عمرها عشرون عاما، هي بعض رسوم نشرت في الأسابيع الأخيرة من حياته. وتصادف أن العمل الفني الذي تصدر الغلاف كان بالأسود والأبيض، اللونين الذين لم تعرف رسوم ناجي العلي غيرهما.

العدد 16: 2007/9

لا للنسخ واللصق

الحاسوب آلة رائعة، متعددة الاستخدامات، ومن اعتاد عليها يصعب عليه فراقها أكثر من ساعات قليلة. وجاء لنا الحاسوب ببرامج لتنسيق النصوص تشمل اختيار حجم الحرف ولونه، وغير ذلك كثير. وجاء لنا بخيار التدقيق الإملائي بما في ذلك النصوص العربية. ومن المزايا التي شاع استخدامها النسخ واللصق، التي وضعت لكي لا يضطر الكاتب لإعادة طباعة ما طبعه بسبب تعديل طفيف، كما كان يحدث في عصر الآلة الكاتبة.

لكن ميزة النسخ واللصق أصبحت وباء. الآن كثيرون يكتبون النصوص بحروف ملونة، ويختارون حروفا كبيرة، ولكن لا يهتمون بتدقيق النصوص إملائيا أو نحويا. ثم ينسخون النص ويلصقونه داخل رسالة إلكترونية ويبعثونه إلى موقع ما. على الطرف الآخر، ينسخ أحدهم النص، ويلصقه داخل إحدى صفحات الموقع. بل قد يظهر النص بعد عملية نسخ ولصق واحدة إذا كان الموقع من مستخدمي قالب معين، وما على الكاتب إلا نسخ نصه داخله، فيظهر لكل العالم بعد الضغط على خيار الحفظ.

لن يتطور كاتب أو كاتبة، ولن تتطور ثقافة قائمة على النسخ واللصق. النص يجب أن يمر في مراحل قبل أن يرى النور. بعض المراحل يجب أن يتولاها الكاتب، ومراحل أخرى يجب أن يتولاها الناشر. يجب أن يراجع الكاتب نصه

أكثر من مرة قبل أن يرسله للنشر، ويستحسن أخذ رأي صديق/ة فيه قبل الإرسال للنشر. ويجب على الناشر أن يراجع النص قبل أن ينشره، فيطلب تعديلات أذا شعر أن النص بحاجة إليها، والكاتب الجاد يتقبل الملاحظات.

والشهرة واللقب الأكاديمي ليسا رخصة لغض النظر عن عدم مراعاة النص لأحكام الطباعة، أو علامات الترقيم، أو توثيق المعلومات حس أصول متعارف عليها، بل تزداد المسؤولية على المشاهير وأصحاب الألقاب الأكاديمية.

كن عزيزي الكاتب، عزيزتي الكاتبة، على مستوى مسؤولية كتابة نصوص ليقرأها الآخرون، أينما اخترت أن تنشر. وكن عزيزي الناشر الإلكتروني المصفاة التي تنقي النصوص مما بقي فيها من شوائب قبل النشر. ولنبتعد جميعا عن النسخ واللصق.

العدد 8: 2007/11

لا يزال العود مشتعلا

صدرت **عـود الـنــد** قبل سنتين وكانت تسبح عكس تيارات عدة، وخاصة ما تعلق بالشائع على الإنترنت. ولكنها لو لم تفعل ذلك، لما كان هناك مبرر لصدورها. وها نحن نبدأ عامنا الثالث، فشكرا لكل من ساهم في دعم صدورها بكتابة نص، أو بلوحة، أو بخبر، أو بتعليق أو بأي شكل آخر.

لم يكن سهلا في البداية إقناع الكاتبات والكتاب بفكرة النشر في **عـود الـنــد** وحدها، ولم يكن سهلا إقناعهم بالانتظار فترة قد تصل شهرا قبل أن يروا نصهم، فبوسعهم أن يرسلوا نصهم إلى مجموعة مواقع في آن واحد، وأن يروا نصهم كما هو خلال ثوان أو دقائق. ولكن الأمر أصبح عاديا بعد ملاحظة الفرق بين مجلة تعاملك باحترام وتحيط نصك بالرعاية، وجهة لا يهتم المشرفون عليها بالرد عليك أو موقع تنشر فيه نصا دون أن يراجعه أحد قبل نشره.

عـود الـنــد صدرت لتكون تطبيقا عمليا لما وددت أن تكون عليه بضعة أمور: أن يتوفر المنبر الراقي للراغبين في النشر دون حاجة لمعرفة مشرف على صفحة ثقافية أو ملحق، وخاصة الشابات والشباب المبتدئين. وأن يتم النشر وفق ضوابط جودة تشمل مراجعة النص ومراعاة أحكام الطباعة وعلامات التنقيط، وهذه الأحكام تنتقص من جودة أي عمل إذا لم تراع. وأن تتلقى ردا إن أنت أرسلت رسالة أو استفسارا.

آمل في يوم من الأيام أن أرى كل من يتولى مسؤولية عن نشر خبر أو نص أو خلافه أن يعتمد ممارسات ضبط الجودة، وعدم الاعتماد على خاصية النسخ واللصق التي انتشرت مع انتشار الحاسوب والإنترنت. وآمل من كل من يتعامل مع جمهور أن يرد على الرسائل والاستفسارات التي ترده، فالجلوس في برج عاجي لا يخدم الثقافة، والتذرع بكثرة الأعمال ليس سببا مقنعا، فإذا كانت **عـود الـنـد** التي تصدر بجهد طوعي قادرة على الرد على الرسائل وتهيئة النصوص للنشر، وغير ذلك، فيفترض أن يكون هناك أكثر من هذا من الأشخاص الذين يتلقون مالا مقابل عملهم.

ينقل عن الكاتب الروسي الشهير تولستوي قوله ما معناه إن كل إنسان يفكر دائما بتغيير العالم، بدل أن يغير الإنسان نفسه. وبعبارة أخرى من ثقافتنا العربية الإسلامية: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم». لقد بدأنا في **عـود الـنـد** بأنفسنا، فأضأنا شمعة بدل أن نلعن الظلام، وزرعنا على باب الدار ياسمينة، ورحبنا بمن يقصد بيتنا، سواء أكان من حينا، أم من بلد آخر.

وسنبقى على عادتنا في الترحيب بالراغبين في النشر في **عـود الـنـد** وفق المواصفات المذكورة في كل عدد. ونطلب تلقي المواد باستخدام النموذج الخاص بذلك، المتوفر على كل صفحة من صفحات المجلة.

العدد 25: 2008/6

ثلاث سنوات من النشر الثقافي الراقي

بصدور هذا العدد [36: 2009/5] تكمل **عـود الـنـد** ثلاث سنوات من الصدور المنتظم مطلع كل شهر أو قبل ذلك في كثير من الأحيان. نمت **عـود الـنـد** مع كل عدد، وتميزت عن غيرها من مجلات ومواقع ثقافية إلكترونية على أكثر من صعيد. ولست بحاجة الآن لأن أعدد بم تميزت **عـود الـنـد**، لأن هناك عشرات عديدة من الكاتبات والكتاب، والفنانات والفنانين التشكيليين، بوسعهم أن يتحدثوا عن تجربة تعاملهم مع **عـود الـنـد**.

لم أبخل بوقت أو جهد طيلة السنوات الثلاث الماضية لكي تكون **عـود الـنـد** مبادرة ثقافية يمكن لكل من ساهم فيها بالكلمة أو الرسم أن يشعر بالفخر لصلته بها. ولم أسع إلى جني مال من إصدارها عن طريق نشر إعلانات لمؤسسات أو الحصول على رعاية أو تمويل من أحد، أو الاعتماد على إعلانات غوغل التي تستخدم في الكثير من المواقع. وكل ما صرف على إصدار هذه المجلة هو من مالي الخاص حصلت عليه بالكد وعرق الجبين (حلال زلال كما يقال). والحمد لله أن الإنترنت مكنتني من إصدار المجلة دون أن أحتاج لأن أكون ثريا، والثروة الوحيدة التي لدي خبرة إعلامية وأكاديمية وضعتها في إصدار مجلة ثقافية ترحب بالجميع، مبتدئين ومحترفين، رجالا ونساء.

ولكن الوقت المتوفر لأي إنسان محدود مهما كثر، وخاصة إذا كانت عليه واجبات أخرى، مثلي، وعلى رأسها إتمام بحثي الأكاديمي الذي يحتاج بدوره إلى

وقت كثير، فإن لم أعطه المزيد من وقتي وجهدي فلن أستطيع إنجازه. وبمناسبة إكمال ثلاث سنوات من النشر، أود أن اشكر كل من ساهم في المجلة بالكلمة أو الرسم أو المساعدة على تدقيق النصوص أو اختيار اللوحات أو نشر أخبار صدور أعدادها المختلفة، أو أي شكل آخر من أشكال الدعم المعنوي.

والتوقف عن الصدور لن يعني أن **عـود الـنــد** ستختفي. ستبقى في موقعيها لسنوات قادمة، حتى تظل معيارا يقارن به غيرها من مجلات ومواقع ثقافية. وإذا ظهر مثلها في الجودة والتعامل، أخبروني. عندئذ سأخرج من عزلتي لأصافح من ساروا على درب **عـود الـنــد**.

العدد 36: 2009/5

من أجل ارتقاء جماعي

ثمة ظاهرة إيجابية سرت بين كتاب وكاتبات **عـود الـنــد**، وهي التعليق على نصوص بعضهم بعضا، والتفاعل الثنائي المباشر، بحيث تحول بعضهم إلى أصدقاء وصديقات. هذه ظاهرة صحية جميلة، ومهمة لتطوير مستويات الكتابة، فالنص الـذي يعطى لكاتب آخر ليعطي رأيه فيه قبل نشره نص يخـرج في حـال أفضل، فالملاحظات تثري النص دائما، وتنبه الكاتب إلى نواقص لا ينتبه لها.

في المقابل، هناك ظاهرة سلبية. كثيرة هي محاولات التعامل مع **عـود الـنــد** كما لو كانت لوحة أعلانية، وموقعا ترسل له أي شيء، ليظهر على الموقع بعد دقائق. وكثيرة هي محاولات تجاهل سياسة النشر في المجلة، وخاصة الجانب المتعلق بعدم نشر ما سبق نشره.

هذه المجلة تصدر مستندة إلى خبرة إعلامية معمقة، ومؤهلات أكاديمية، وخبرة في التدريس على المستوى الجامعي. وصدرت لتساعد على رفع مستويات الكتابة، وتوفير منبر للنشر الراقي، ولإعطاء قدوة في تعامل الناس مع بعضهم بعضا ومع الهيئات التي تتعامل مع جمهور. نحن من الحالات القليلة التي تراجع النصوص وتنشرها في حلة أبهى من التي أتت بها، وترد على

الرسائل والاستفسارات بسرعة. ولا نخشى عملية مقارنة مع المواقع الإلكترونية أو المطبوعات الورقية.

عـود الـنــد مبادرة ثقافية وليست موقعا إلكترونيا وحسب. تصدر بنظام مجلة إلكترونية تطبق معايير جودة لا تجدها إلا في المؤسسات الراقية. لا تريد **عـود الـنــد** أن تكون موقعا كأي موقع، ولا تريد أن تجني مالا من الإعلانات. نريد أن نكون منبرا راقيا لكل من يريد أن يكون على مستوى راق. قد يكون الانحدار الجماعي مقبولا ومستساغا، ولكن هذه وصفة البقاء في الحضيض. البديل أن يكون الارتقاء جماعيا أيضا.

العدد 41: 2009/11

عن المواهب ودعمها

ليس هناك نقص في المواهب، بل نقص في اكتشاف المواهب. هذا قول قرأته قبل سنوات، وفتح عيني على حقيقة يكتشفها كل صاحب موهبة عندما يحاول أن يعطيها فرصة الظهور والتطور. كثيرون يحاولون عن قصد وغير قصد إقناعنا بأن موهبتهم أو موهبة من يحبونهم حالة استثنائية، فمنهم من ولد شاعرا، وآخر ولد روائيا، وثالث ولد ممثلا، وهكذا.

والأسوأ أن يعمل المعجبون بمواهبهم الاستثنائية ومريدوهم على مقاومة ظهور مواهب أخرى بأساليب مباشرة وغير مباشرة. ومن ابسط الوسائل لحرمان المواهب من الظهور والتطور تجاهلها والتظاهر بأنها غير موجودة. ولذا تجد تكرارا مملا لأسماء اشتهرت في كل مجال، ويكاد يختفي الاهتمام بالناشئين والجدد الراغبين في دخول هذا الميدان أو ذاك.

عـود الـنــد آلت على نفسها أن تعطي الفرصة لكل المواهب، وهنا نشر كثيرون نصهم الأول، وفعلوا ذلك دون حاجة إلى الانتظار، فكان شعورهم بالسعادة لا يوصف. منهم من اكتفى بعد نص أو أكثر، ومنهم من استمر في الكتابة.

ها هي **عـود الـنــد** تستمر بالصدور شهرا بعد شهر بمواهب جديدة، وتجد فيها التعايش الصحي والسليم بين المحترفين والمبتدئين، فكل إنسان لا

بد أنه كان مبتدئا في مجال ما في يوم ما. المهم تطوير الذات من أجل تحقيق المكانة المرغوبة، فالشهرة والمكانة ليستا شيئا واحدا.

يتأكد لي عددا بعد عدد أن القول عن النقص في اكتشاف المواهب صحيح مئة في المئة. كثيرا ما أقرأ لأسماء شهيرة ولا أخرج راضيا عما قرأت. وقد منحني صدور **عـود الـنــد** فرصة قراءة نصوص جديدة كل شهر، فأخرج مسرورا لوجود المواهب في كل مكان، رجالا ونساء، بعضهم على مقاعد الدراسة الثانوية، وآخرون أساتذة في المدارس والجامعات، وكلهم، بصرف النظر عن العمر أو المهنة أو أي شيء آخر، يلقون الترحيب والاهتمام.

العدد 52: 2010/10

الصداقة في الشرق والغرب

إذا استلطفك شخص في دولة عربية يعلنك صديقا له خلال دقائق من تعارفكما، وقد يدعوك إلى بيته في اليوم التالي. ولهذا الأسلوب إيجابياته بالتأكيد، ولكن له سلبيات أكثر، فهذه الصداقات تنهار بسرعة مثلما نشأت.

تنهار عند أول سوء فهم، وتنهار عندما يطلب صديقك الجديد استلاف مبلغ من المال وتعتذر عن ذلك، وتنهار عندما لا تتجاوب مع رغبات الصديق في أن تفعل ما لا ترغب في عمله. ولا تنهار الصداقة فحسب، بل لا بد من الاستماع إلى بعض الردح والإهانات، قبل أن تصبح «الصداقة» ذكرى أليمة، ويصبح يوم تعارفكما يوما أسود.

الصداقة في الغرب تتم ببطء. على العكس من الشائع في الدول العربية، لا يسعى المواطن الذي يعيش في الغرب إلى الإكثار من الأصدقاء، وحتى يصل شخص ما إلى مرتبة صديق، يجب مرور الكثير من الوقت، وتعرض الصداقة إلى الكثير من المواقف التي تؤدي إلى فرز الأشخاص، ويصبح شخص ما صديقا، أما البقية فمعارف وزملاء، وما إلى ذلك.

الصديق يتقبلك كما أنت، ولا يحاول تغييرك. الصديق لا يصادقك لأنه يريد شيئا من هذه الصداقة. والصديق لا يعاتبك على مزاجك المتكدر عندما تقابله، ويختلف معك في الرأي دون أن تتأثر صداقتكما، فلكل منكما شخصية

مستقلة، والصديق يستأنف صداقته معك، كما لو أنه كان معك قبل خمس دقائق، رغم اللقاء بعد خمس سنوات من الغياب.

إذا تعرفت على شخص وقال لي «يا صديقي» يكون رد فعلي التلقائي: «الله يستر»، فنحن للتو تعرفنا على بعض. وعندئذ، تبدأ ساعة توقيت انهيار الصداقة: بعضها ينهار بعد أيام، وآخر بعد أسابيع، وبسرعة تنتقل من شخص محبوب إلى آخر لا يطاق.

الصداقة كالزراعة: هناك حاجة إلى تربة جيدة وبذور خالية من الأمراض وماء ورعاية لكي تنبت زهرة جميلة عطرة. فلا داعي للاستعجال في جمع الأصدقاء وتحويل ذلك إلى هواية كجمع الطوابع، أو اعتبار من يضيفك إلى فيسبوك صديقا، أو من يسبغ عليك صفة «صديق» لتخديرك تمهيدا لاستغلالك وصداقتك بشكل أو بآخر. الأيام كفيلة بأن تؤكد لك، هذا صديق فعلا، وآخر عابر سبيل.

العدد 44: 2000/2

قرار العام الجديد

كل عام وأنتم بخير. عندما يشارف العام الميلادي على الانتهاء يفكر بعض الناس بما يريدون تحقيقه في العام القادم، ويتخذون قرارا ما يعرف بقرار العام الجديد. قد يكون قرار العام الجديد تخفيف الوزن، أو الإقلاع عن التدخين، أو أي شيء مهم أو غير مهم. من لم يتخذ قرارا بعد يمكنه أن يتخذ قرارا الآن، فهذا العدد [55: 2011/1] بين يديك، بل أمام عينيك، قبل بداية العام الجديد.

اقترح قرارات اشعر بوجود حاجة ماسة لها في ضوء تعامل عدد كبير من الناس مع **عـود الـنـــد**:

الاقتراح الأول العودة إلى كتاب نحو وتذكير النفس بالرفع والنصب والكسر والجزم. الأغلبية الساحقة منا نفرت من النحو أثناء تعلمه في المدارس. عندما تدرسه بنفسك يكون الأمر مختلفا. ستجد لذة في تعلم أحكام القواعد وستدرك عبقرية اللغة العربية.

اقتراحي الآخر أن تتعامل مع الغير بكل احترام، فتلقي تحية في البداية، وتطلب ولا تأمر، وتشكر حتى لو كانت الخدمة المقدمة لك مدفوعة الأجر. ثمة اعتقاد أن التعامل باحترام لا يكون إلا مع من ترى أنهم أعلى مرتبة منك، أما التعامل مع من تراهم دون مستواك فلا يكون إلا بالأمر وبلغة جافة.

جامع القمامة يشكر. سائق الحافلة يشكر. النادل في المطعم يشكر. كل من تتعامل معه يشكر.

ثالث الاقتراحات أن تقرأ لغيرك مثلما تتوقع أن يقرأ الآخرون لك ويثنون على كتابتك. لا داعي للذهاب إلى أكبر عدد ممكن من المواقع لنشر نص واحد. إذا كانت هناك مشكلة قراءة في العالم العربي، فعدد قراء نصك لن يزيد بزيادة المواقع التي تنشر فيها. قرر أيضا أن تقرأ نصا أو اثنين في كل موقع تنشر فيه.

الاقتراح الرابع ألا تحول الرسائل الإلكترونية إلى أكبر عدد ممكن الناس، فكثير مما يحول يحتوي على معلومات كاذبة، ويخدم شركات الإنترنت لا القضايا التي تدعو إلى دعمها. هي عادة رسائل ذات حجم كبير ترهق حاسوب من يستقبلها. كن على يقين أن غيرك حولها، أو سيحولها، وسيتكرر تحويلها كل بضعة شهور.

خامس وآخر الاقتراحات التقليل من زيارات فيسبوك وتويتر، والتفاعل مع الأصدقاء بشكل شخصي إن أمكن، أو بالاتصالات والرسائل المباشرة. وعلى ذكر فيسبوك، بعض من يرغب في النشر في **عـود الـنـد** يحجم عن إرسال صورة للنشر مع النص، بينما صوره منشورة في فيسبوك.

مقترحاتي تشير إلى تناقضات بين غاياتنا وممارساتنا لتحقيقها، فلكي تكون كاتبا لا بد أن تجيد أساسيات الكتابة، وإذا أردت أن يحترمك الناس، فيجب أن تحترمهم أيضا. ولكي تستحق لقب «مثقف» لا يجوز مثلا أن ترسل مادة للنشر مرفقة بتأكيد أنها «لم تنشر من قبل» مع أنك تعلم أنك متى وأين نشرتها من قبل. النصوص لا تهرب من الحواسيب لتنشر نفسها دون علم صاحبها.

أرجو لك عاما جديدا سعيدا، ونجاحا باهرا في تنفيذ قرارك.

العدد 55: 2011/1

عـود الـنــد تبدأ عامها الخامس

في المثل الشعبي أن بائع الزيت لن يقول إن زيته عكر، أو في مثل آخر أن الابن لن يكون إلا جميلا في عيني والديه، وهذا ينطبق عليّ حين أتحدث عن **عـود الـنــد**، ولذا طلبت من مجموعة ممن تعاملوا معها أن يكتبوا عن تجربتهم في مئة كلمة، وتساهلت إلى حد 150 كلمة.

جعلت أقوالهم كلمة العدد لأنها الكلمة التي يمر عليها كل القارئات والقراء بعد طي صفحة الغلاف، ولأن **عـود الـنــد** تصدر بمساهمات المبدعات والمبدعين، ولكي تكون أقوالهم فرصة لكي يقارن كل واحد تجربته بالآخر، لتصبح لديه صورة أفضل لتعامل **عـود الـنــد** مع غيره، ولكي أضع شهادة جماعية عن تجربة التعامل مع **عـود الـنــد** في متناول الجميع.

يقال في الأمثال أيضا إن الصديق من صدقك، ولذا عندما تبنت المجلة مجموعة من السياسات والمعايير، لم تفعل ذلك نتيجة عقلية مزاجية أو عشوائية، بل جاءت نتاج خبرة في الحياة والإعلام وفي الميدان الأكاديمي، وهدفها المساعدة على الارتقاء بمستويات الكتابة، وخاصة في زمن النسخ واللصق.

الكاتب الجيد يبحث عن دار نشر جيدة، والباحث الجاد يبحث عن دورية جادة، وقد برهنت **عـود الـنــد** خلال السنوات الأربع الماضية المقدرة على التعامل مع الأساتذة الجامعيين، والباحثين الأكاديميين وغيرهم، وهؤلاء

تحديدا يعلمون أكثر من غيرهم أهمية أن يكون البحث المنشور على درجة عالية من الدقة من ناحية اللغة والمعلومات والتوثيق.

وللراغبين في النشر عموما أقول: الطالب المجتهد يسعى إلى الذهاب إلى أفضل الجامعات ليتخرج منها متمكنا من علمه، والطالب المجتهد، يسعى إلى التسجيل في مواد الأساتذة الجيدين. فكر في **عـود الـنـد** بالطريقة نفسها. أنت المستفيد من سياسات النشر ومعاييره. فلا داعي لحملنا على التخلي عنها. المطلوب منك فقط أن تبذل جهدا إضافيا في إعداد نصك قبل إرساله للنشر، فأنت عندما تنشر نصا في **عـود الـنـد** تكون كمن يحضر حفل استقبال: تنتبه كثيرا لتفاصيل ملابسك ومظهرك. عامل نصك بالطريقة نفسها. ابعثه وقد تأكدت أنه في أحسن حال، لينتزع الإعجاب لحظة وصوله.

أرجو المعذرة من الأخوة والأخوات على النبرة الوعظية في هذه الكلمة، ولكن من حين لآخر لا بأس في أن يحدثنا صاحب خبرة عن خبرته، فقد نتعلم منها شيئا مفيدا، وصدقوني أنني تلميذ في مدرسة **عـود الـنـد**، فكل شهر أحظى بفرصة لأن أتعلم من الصغير والكبير، من زملاء وزميلات لا أعرف إلا القليل منهم معرفة شخصية، والأغلبية الساحقة لا أعرفها.

في الختام أود أن أشكر كل من ساهم في دعم **عـود الـنـد**، بالكتابة، أو بتوفير العمل الفني للغلاف، أو بنشر أخبار الأعداد الجديدة، أو وضع وصلة لموقع المجلة في موقعه ومدوناته، أو بالتفاعل مع مواد المجلة، أو بأي شكل آخر ساعد المجلة على الوصول إلى أكبر جمهور ممكن تعميما للفائدة والمعرفة.

العدد 48: 2010/6

خمس سنوات من عـود الـنــد: مقارنة

بصدور هذا العدد [59: 2011/5] تكمل **عـود الـنــد** خمس سنوات، وهي مدينة بالاستمرار لمن تحمسوا لها من كاتبات وكتاب وقارئات وقراء. اسمحوا لي في هذه المناسبة أن أعقد مقارنة بين النشر في مجلتكم، والنشر في مكان آخر.

جاءني ذات يوم نص فيه إشارات إلى مؤلفين أجانب وعناوين كتب بالفرنسية، وقد وافقت على نشره على أساس قبول مرسله بشروط النشر المعلنة. وبعد أيام من صدور العدد، وجدت الموضوع منشورا في صحيفة يومية يشرف على قسمها الثقافي شاعر وروائي ممن تجد أسماءهم في أماكن عديدة.

راجعت مرسل النص في الأمر، معترضا على إرساله للنشر في مكانين في آن واحد، وإيهامي بأنه كان للنشر في **عـود الـنــد** فقط. اقسم لي أغلظ الأيمان أن الأمر كان نتيجة خطأ غير مقصود. ومع أن الموقف أزعجني، إلا أنه قدم لي الفرصة لعقد مقارنة بين النشر في **عـود الـنــد** والصفحات والملاحق الثقافية، التي يشرف على تحريرها عادة شعراء أو روائيون أو نقاد.

لنبدأ بإرسال النص. عندما أرسل النص إلى الصحيفة، لم يعلم مرسله متى سينشر، فانتظر حتى يأس من نشره. عندما أرسل النص إلى **عـود الـنــد**، أعلم مرسله بوصوله، وكان يعرف أيضا متى سينشر نصه، فموعد النشر شهري، ولا يتأخر عادة، بل يتقدم قليلا.

عندما نشر الموضوع في الصحيفة، لم يتلق مرسله إشعارا بنشره. كان على مرسله أن يذهب إلى موقع الصحيفة أو يقلب صفحاتها كل يوم ليرى إن كان النص نشر أم لا. عندما نشر النص في **عـود الـنــد**، تلقى صاحبه إشعارا بذلك يشكره على المشاركة ويزوده بإرشادات بخصوص كيفية التعامل مع نماذج الرسائل والتعليقات.

عندما نشر النص في الصحيفة اليومية، نشر كما أرسله صاحبه. في **عـود الـنــد**، عزز بصور لأشخاص وغلف كتب ذكرت في النص، وكتبت الأسماء الأجنبية بالعربية وبالحروف اللاتينية لتسهيل البحث عن مزيد من المعلومات على من لديه اهتمامات بحثية.

اختفى النص بعد يوم واحد من نشره في الصحيفة. في **عـود الـنــد** بقي معروضا للنشر شهرا كاملا. وعندما صدر عدد جديد، ظلت الأعداد السابقة متاحة بسهولة.

خلاصة القول إن من يريد إيهام نفسه بأن النشر في الصفحات أو الملاحق الثقافية يعني نشرا في مكان أعلى جودة مخطئ. والدليل الملموس فصلته لكم أعلاه.

في **عـود الـنــد** حرصنا منذ اليوم الأول على الجودة بتبني سياسة نشر وتطبيق معايير مهنية، وعدم تجاهل أو محاباة أحد. لذلك، يحق لنا جميعا أن نفخر بالوصول إلى ختام العام الخامس، والوقوف على عتبة السادس بثقة واعتزاز.

العدد 59: 2011/5

عـود الـنــد تبدأ عامها السادس

لم تكن **عـود الـنــد** أول من دخل ميدان النشر الثقافي الإلكتروني، ولكنها دخلته ولديها رسالة وتصور لكيفية إيصالها. الرسالة هي خدمة الثقافة العربية والمساعدة على الارتقاء بها على أساس غير ربحي. ولقد دخلت هذا الميدان متسلحا بخبرة إعلامية وأكاديمية، وتجربة متنوعة في الحياة جزء منها في الشرق وآخر في الغرب.

الصمود في ميدان النشر الثقافي ليس سهلا، فالمواقع والمجلات الثقافية كثيرة، والمبادرات الجيدة لا يكتب لها النجاح بالضرورة، فهناك ما ينجح بالمال، أو بشبكة العلاقات، أو برعاية رسمية. يضاف إلى ذلك، أن لكل كاتب/ة تصورا لأهمية وجودة ما يرسل للنشر، لذا لم تخل السنوات الخمس الماضية من اختلاف في الرأي على نشر موضوع.

ثمة حاجة للتأكيد على أمر في هذا الصدد. يخطئ من يظن أن قرارا بعدم النشر أو التعديل يرجع لموقف شخصي. من أعرف من الكاتبات والكتاب بشكل شخصي محدود للغاية، ومن أعرف شخصيا يتقبل قراري بترحاب. ولذا لا حاجة لي لاتخاذ موقف شخصي من راغب/ة في النشر، فلا نحن نعيش في بلد واحد، ولا نعمل في مؤسسة واحدة، ولكل منا اهتماماته حيث يعيش، وبالتالي كل ما يدفع الناس لاتخاذ مواقف شخصية مفقود.

من يعتقد أن دوري كناشر هو نسخ ولصق موضوعه مخطئ. ومن تقبل قراري بالرفض أو التعديل لاحظ أني حريص على نصه مثل حرصه عليه. ولذا تقبل كثيرون قراراتي وملاحظاتي بصدر رحب، مثلما أتقبل ما يرسل إلى من ملاحظات.

وها نحن نبدأ عاما سادسا من النشر الراقي. وجدت المناسبة فرصة لبعض التغيير في الشكل وطريقة النشر، لا الجوهر. كان من الممكن أن تجري عملية التغيير دون إعلان مسبق، ودون إبداء أسباب. ولكني لست ممن يتصرفون وفق هذه العقلية. ولذا من منطلق الاحترام للكاتبات والكتاب والقارئات والقراء أعلنت عن العزم على التغيير، وطلبت المشاركة في التجريب لاختيار الأنسب لأداء **عـود الـنــد** عملها الطوعي في خدمة الثقافة العربية.

يمكن اعتبار **عـود الـنــد** في مرحلة انتقالية الآن، وككل تغيير سيكون له مؤيدون ومعارضون، وسيكون فيه ربح وخسارة. ولكن التغيير في مجمله إيجابي للمجلة وكتابها وقرائها، وجاء بعد دراسة وتجريب ومشاورات. كلنا الآن كمن ينتقل إلى بيت جديد لا يزال بحاجة إلى طلاء و«تشطيبات» طفيفة، وبعدئذ سيشعر الجميع بأن البيت صار مألوفا ولكل واحد مكانه المفضل فيه.

العدد 60: 2011/6

عـود الـنــد تبدأ سنتها السابعة

تخطو **عـود الـنــد** بهذا العدد [72: 2012/6] خطوة كبيرة على طريق سنتها السابعة، فمحتوياته أتت من المغرب العربي ومشرقه، من رجال ونساء، محترفين ومبتدئين. ولا تعكس موضوعات العدد نمطا تفرضه المجلة أو تفضله على غيره. القاسم المشترك بينها الرغبة في النشر في منبر ثقافي راق، دون الحاجة إلى واسطة، أو معرفة شخصية مسبقة.

لا تزال غاية **عـود الـنــد** خدمة الثقافة العربية ومحبيها وفق معايير جودة أقنعت الكثيرين من الكاتبات والكتاب والباحثين والباحثات أنها تصب في مصلحتهم على المدى الطويل. لا أبالغ إذا قلت إن من يكتب في **عـود الـنــد** وفق الأساليب التي نوصي بها يستطيع أن ينافس غيره من الكتاب بثقة لو دخل معهم في مسابقة الحَكـم فيها هو الجودة. **عـود الـنــد** لا تخذلك. المواد التي نشرت فيها ظلت على النت منذ صدورها قبل ست سنوات. الانقطاع إن حصل فهو لفترة وجيزة ولأسباب تقنية تواجهها كل المواقع، ولكننا نحرص على إصلاحها وتفاديها بالبحث عن أفضل الأماكن لاستضافة موقع المجلة.

سنبقى مجلة ثقافية مفتوحة، لا تشترط عليك التسجيل في الموقع لكي تكتب فيها، ولا إرسال نسخة من هويتك، أو نشر صورة مع نصك، بل تتعامل معك كإنسان راشد يقرر ما هو الأنسب له في هذه الأمور. وستبقى كل

صفحاتها مفتوحة للقراءة بدون شروط. هناك طبعا بعض الشروط للنشر، وهي ملخصة في سياسة النشر، ومنطلقها الحرص على الجودة.

لا غنى لنا عن جهود الكاتبات والكتاب في الحفاظ على الجودة وبقاء المستويات عالية، وهذا يتطلب اهتمام الكتاب بمادتهم قبل إرسالها للنشر. هناك تزايد في عدد وجودة ما يصل للنشر، وكلما زادت المواد التي أعتني بها قبل إرسالها، كلما ضاق هامش النشر لمن لا يريد أن يعتني بنصه قبل إرساله.

أشكر في الختام كل من ساهم في **عـود الـنــد** ببحث أو مقالة أو نص أو عمل فني، أو قدم دعما بأشكاله المختلفة كالترويج للمجلة وأعدادها، أو من شد على أيدينا بالكلمة الطيبة فحفزنا على الاستمرار دون كلل.

العدد 72: 2012/6

عـود الـنــد تكمل سنتها السابعة

بصدور هذا العدد، 83 [2013/5]، تكمل **عـود الـنــد** سنتها السابعة. وفي الوصول إلى هذه المرحلة دلالات إيجابية عديدة، أوجز بعضها أدناه.

الحاجة إلى وجود منبر للنشر الثقافي الراقي واضحة، بدليل الاستمرار في الصدور، والزيادة المطردة في عدد الكاتبات والكتاب، وارتفاع معدل الزيارات الشهري واليومي.

النشر وفق معايير جودة على الإنترنت والنجاح في ذلك أمر ممكن، فمعايير الجودة لا علاقة لها بالنشر ورقيا أو إلكترونيا، بل لها علاقة بالناشر وتطبيق معايير جودة.

المفاضلة بين النشر الورقي والإلكتروني تجازوها الزمن نتيجة تطور التكنولوجيا. الأجهزة الإلكترونية المزودة بخدمة إنترنت أصبحت وسيلة شائعة في الحصول على المعلومات ومتعة القراءة والتواصل المهني والاجتماعي. من يفضل عدم استخدام هذه الأجهزة يحرم نفسه/نفسها من مزاياها العديدة.

التطور التقني فرض نفسه على كل مجالات الحياة، بما في ذلك الصحف والمجلات. من ظن أن الوضع في العالم العربي مختلف عن بقية العالم مخطئ، وخير دليل على ذلك انسحاب مجلة «الآداب» من ساحة النشر الورقي في الآونة الأخيرة.

النجاح المتمثل في استمرار **عـود الـنـد** يناقض آراء المتشائمين والهجاءين، الذين يكررون أقوالا غير لائقة من قبيل «العرب ظاهرة صوتية» أو أنهم لا يقرأون. هؤلاء بحاجة إلى ممارسة النقد الذاتي، لا الإصرار على التمسك بهذه الأقوال.

لم تتعامل **عـود الـنـد** مع النشر الثقافي من منطلق أن الثقافة برج عاجي يدخله عدد محدود من الناس، ويصنف البشر على أساس قلة مثقفة وأغلبية غير مثقفة أكثر ما هو مطلوب منها هو الاستماع للمثقفين والمثقفات والتصفيق لهم، وإن لم يفعلوا ذلك فهم بسطاء وجهلة.

مارست **عـود الـنـد** النشر الثقافي وفق سياسة نشر معلنة، ومعايير جودة، وتعاملت مع القراء والقارئات والكتاب والكاتبات باحترام يتمثل في الرد على الاستفسارات، وإبلاغ المشاركين والمشاركات في عدد بصدوره قبل الإعلان عن ذلك على الملأ. نشر أو رفض موضوع لا يتم على أساس المعرفة الشخصية أو المصلحة أو البلد أو أي اعتبار آخر. لا نمارس الرفض بدون إبداء الأسباب، بل نشرح السبب، وهو دائما مرتبط بعدم التوافق مع سياسة النشر المعلنة.

مع ختام العام السابع أشكر كل من ساهم في دعم هذه المشروع الثقافي، سواء من خلال الكتابة أو بالدعم المعنوي بأشكاله المختلفة من قبيل إبداء الملاحظات، أو من خلال نشر أخبار صدور المجلة. كنت ولا أزال أعتبر المجلة مشروعا ثقافيا جماعيا، والتحدي دائما يكمن في المحافظة عليه راقيا، وهذا يحتاج إلى تعاون دائم ممن نشر في **عـود الـنـد** ومن يرغب في النشر فيها، وذلك بالحرص الشديد على جودة المادة التي ترسل للنشر.

أتطلع إلى سنة ثامنة من الصدور بتفاؤل، وقد استطلعت آراء عدد كبير من الكاتبات والكتاب وغيرهم، ووردتني بعض الاقتراحات. كثير من ردود الفعل شجعت على الاستمرار على النهج نفسه لأن له الفضل في النجاح والتميز.

العدد 83: 2013/5

نصــوص

العودة سائحا

رحلة المسافة القصيرة والزمن الطويل

الجزء الأول: الرحلة من عمان إلى بيت لحم

في شهر أيلول (سبتمبر) الماضي [2006]، جاءتني فرصة غير متوقعة لتدريب إذاعيين في مدينة بيت لحم الفلسطينية. ولحسن الحظ أن المواعيد كانت مناسبة لي، ولا تضطرني لتعديل ارتباطاتي أو رفض الفرصة بسببها. بدأت الإعداد لرحلتي بعد الاتفاق على التفاصيل مع الشركة التي تريد تدريب الإذاعيين. حجزت تذكرة للسفر جوا من لندن إلى عمان، ومنها برا إلى بيت لحم.

استيقظت للرحلة قبل السادسة صباحا. وتوجهت إلى مجمع السيارات العمومية في منطقة العبدلي لأستقل هناك سيارة عمومية (سرفيس) توصلني إلى جسر الملك حسين، الجسر الذي يربط ضفتي نهر الأردن الشرقية والغربية، القريب من بلدة الشونة الجنوبية على الجانب الشرقي، ومدينة أريحا على الجانب الغربي.

كنت الراكب الثالث. وعندما جاء الرابع أصبحت السيارة جاهزة للانطلاق إلى منطقة «الجسر». خلال ساعة وصلت السيارة إلى مقصدها، وتوجهت مع الركاب إلى المركز الحدودي.

أبلغت بعد الاطلاع على جواز سفري أن عليّ الذهاب إلى القسم الخاص بالسياح. خلال دقائق تمت إجراءات مغادرة الجانب الأردني. أشير لي إلى حيث تأتي حافلة لنقل الركاب إلى الجانب الذي يسيطر عليه الإسرائيليون.

قبل الثامنة والنصف حضرت حافلة، وحملت أمثالي من «السياح» وانطلقت غربا. قبل الوصول لمركز الحدود على الجانب الغربي، توقفت الحافلة ونزل الركاب ولا شيء معهم إلا جواز السفر. عاين إسرائيلي الجوازات، وانتظر جميع الركاب إلى أن أذن لهم بالعودة إلى الحافلة.

انطلقت الحافلة ثانية، وأنزل الركاب عند المركز الحدودي الآخر. هناك يسلم المسافر حقائبه وجواز سفره، ثم يعاد له جواز السفر، وعليه ورقة ملصقة على الغلاف الخلفي للجواز. بعدئذ، تتجه إلى الشباك المخصص لمن هم مثلك وتنتظر دورك.

«إلى أين أنت ذاهب؟» سألت المجندة الإسرائيلية.

«إلى بيت لحم».

مجموعة أخرى من الأسئلة التي يفصل بينها لحظات تقضيها المجندة في متابعة شاشة الحاسوب أمامها:

«هل هذه أول زيارة لك؟ هل معك جواز سفر آخر؟ ما هي مهنتك؟ لماذا أنت آت؟ إلى أين أنت ذاهب؟ كم من الوقت ستقضي؟»

انتظر بضع دقائق. ولا أدري هل سيطلب مني الانتظار كمن سبقوني أم لا. أعطيت جواز السفر وورقة ختم عليها أذن بالبقاء ثلاثة أشهر.

انتقلت إلى ما وراء نوافذ ختم وثائق السفر. دقق إسرائيلي آخر في جواز السفر، وانتقلت إلى قسم الحقائب. يوضع الطابع الذي ألصق على جواز السفر على قارئ إلكتروني، فإن لم يكن في حقيبتك ما يثير الشبهة يسمح لك بالعبور إلى حيث تنتظر الحقائب، وإلا طلب منك فتح الحقيبة للتفتيش.

سمح لي بالانتقال إلى حيث تنتظر الحقائب، فأخذت حقيبتي واتجهت نحو المخرج. طلب مني إسرائيلي آخر أن يلقي نظرة داخل حقيبتي، وسألني إن كان معي أكثر من ألفي دينار أردني، ففي هذه الحالة يجب التصريح بحيازتها، فقلت: «لا أحمل نصف هذا المبلغ».

بعد أن خرجت من قاعة القادمين تعين عليّ شراء تذكرة لركوب حافلة لتنقلني إلى ما يسمى «استراحة أريحا». ركبت مع آخرين الحافلة التي تنقل المسافرين إلى الاستراحة، وعلى الطريق توقفت الحافلة وصعد إليها شرطي فلسطيني جمع بطاقات الهوية وجوازات السفر، وعاد بعد دقائق ونادى الأسماء ليسلم الوثائق لأصحابها.

استأنفت الحافلة رحلتها القصيرة، ووصلت استراحة أريحا. هناك ينزل الركاب ويتسابق العمال على المساعدة على لتحميل الحقائب ونقلها إلى حيث يريد صاحبها. ويأتي السماسرة وسائقو السيارات ليجذبوا الركاب إلى المدن التي تذهب إليها السيارات التي يقودونها: جنين، رام الله، بيت لحم، وغيرها من مدن الضفة الغربية.

يصطحب السائق الراكب إلى سيارة تتسع لسبعة ركاب. حاول أحد السائقين أن يعقد معي صفقة ليوصلني وحدي إلى بيت لحم، لكني أبلغته أني سأبقى في السيارة التي صعدت إليها وأفضل السفر مع ركاب آخرين. وجلست أنتظر ستة ركاب يريدون الذهاب مثلي إلى بيت لحم. وبدأت رحلة الانتظار.

منذ الثامنة صباحا كانت حرارة الشمس مرتفعة، فالشونة الجنوبية حيث مركز الحدود «الجسر» تقع في غور الأردن، إحدى أكثر مناطق العالم انخفاضا تحت سطح البحر، وعلى الدرجة نفسها من الانخفاض تقع مدينة أريحا. وتزداد وطأة الحر الشديد على مسافر مثلي يلبس جاكيتا، ولم يكن لي هدف من لبسه سوى أن تكون الأوراق الضرورية في جيوبي كي لا أنساها أو أفقدها إذا وضعت في كيس أو حقيبة يدوية.

أتى إلى السيارة رجل مع شابة تغطي رأسها بمنديل ومكحلة العينين. ينطلق صوت قارئ للقرآن الكريم عندما تتلقى اتصالا هاتفيا. فهمت من حديثها أن مرافقها أحد أقارب أمها.

«سأكون في بيت لحم بعد ساعة»، قالت لمن اتصل بها.

لا بد أنها قالت ذلك على أساس تجربة سابقة لها، أو لأنها شديدة التفاؤل. فقد صار المنتظرون ثلاثة، وكلما انتعشت الآمال عند وصول حافلة جديدة باكتمال عدد الركاب، تبخرت التوقعات. واستمر الانتظار في الحر الذي يمكن أن يصيب الإنسان بضربة شمس.

طال الانتظار أكثر من ساعتين. وأخيرا اقترحت على السائق أن ينطلق بنا إلى بيت لحم على أن أدفع له أجرة مقابل الكراسي التي بقيت فارغة، واشترطت في المقابل أن يعطيني إيصالا لأطالب بالمبلغ لاحقا من الشركة.

بعد مسافة قصيرة من استراحة أريحا توقفت السيارة عند حاجز إسرائيلي. تقف السيارة بعيدا عن الجندي الذي يتحكم بالحاجز، ولا تتحرك إلا عندما يشير لها فتأتي إليه. يسأل الجندي عن البطاقات، يناوله الآخرون بطاقاتهم، وأحاول فك زر الجيب الداخلي لأخرج جواز السفر فتتأخر عملية فك الزر. يقرر الجندي ألا ينتظر ويسمح للسائق بالانطلاق.

تنطلق السيارة إلى بيت لحم عن طريق وادي النار. تصعد السيارة جبالا، وتهبط وديانا، وكلما بلغنا منحدرا شديدا ضغط السائق على دعسة البنزين ليزيد السرعة بدل أن يكبح جماح السيارة. في منتصف الطريق إلى بيت لحم نقترب من حاجز آخر. كانت سيارتنا الثانية في دور انتظار إشارة الجندي الإسرائيلي. ولما أعطي السائق إشارة التقدم، لم يطلب الجندي منه التوقف عنده. كان إيقاف السيارات من عدمه عشوائيا. أما في الاتجاه الآخر فقد بدأت السيارات تصطف، وبدأ خط السيارات الواقفة يمتد، مما يجعل زمن الرحلة من مكان إلى آخر غير مرتبط بالمسافة بينهما وسرعة السيارة.

نبدأ بتجاذب الحديث على الطريق إلى بيت لحم. الرجل يقول إنه طبيب، وسافر في الماضي إلى بريطانيا وآيرلندا. وقد تطوع للعمل دليلا سياحيا لي. ولفت نظري إلى جدار الفصل العنصري الذي بدأت الحكومة الإسرائيلية تشييده عام 2003، والذي اعتبرته محكمة العدل الدولية غير قانوني في حكم أصدرته عام 2004. الشابة لفتت نظري إلى الرسوم والشعارات المرسومة على الجدار كتعبير عن التحدي له.

وعندما أصبحنا داخل بيت لحم. أشار الطبيب إلى حيث حشد من الشباب والشابات وقال: «هذه جامعة بيت لحم». وقالت الشابة: «هناك كنيسة المهد». تدخل السيارة شارع السينما، حيث كانت هناك سينما ذات يوم. ثم دارت السيارة يمينا، وبعد مسافة قصيرة توقفت أمام مدخل الفندق. أنزلني السائق وحقيبتي، ودفعت له كما اتفقنا في استراحة أريحا. حيـيت الراكبين والسائق، ودخلت الفندق. كانت الساعة عندئذ حوالي الثانية بعد الظهر.

بعد إتمام إجراءات تسجيل الإقامة في الفندق استلمت مفتاح الغرفة، وبعد فتح باب الغرفة ووضع الحقيبة في أقرب مكان وجدته لها، توجهت إلى الحمام، وقضيت وقتا طويلا تحت الدوش.

العدد 6: 2006/11

العودة سائحا: الجزء الثاني

زيارة كنيسة المهد

كنت تواقا لزيارة كنيسة المهد، فهي ليست أهم معلم في المدينة وحسب، بل من أهم المقدسات للمسيحيين في جميع أنحاء العالم. ويعتقد أن المسيح عليه السلام ولد فيها. وقصة أم المسيح، مريم العذراء عليها السلام، لها سورة كاملة في القرآن الكريم، تحكي كيف أراد الله لعذراء أن تلد صبيا، نبيا، تحدث نيابة عن أمه عندما طلب منها تفسير لما جرى لها:

> فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً (29) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً (31) وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً (33)(سورة مريم).

اصطحبني رائد، أحد المذيعين المشاركين في الدورة، إلى كنيسة المهد. مررنا عبر الشارع الضيق الذي يفضي إلى الساحة التي أمام كنيسة المهد. الشارع مبلط بالحجارة، وعلى جانبيه المحال التجارية. نصل ساحة المهد فأجدها أصغر مما تبدو في التقارير الإخبارية المتلفزة. نقترب من المدخل الصغير للكنيسة

وننحني لنتمكن من الدخول. مدخل الكنيسة صغير عن عمد، ليكون دخول الكنيسة مقرونا بتعبير عن الاحترام والتقدير.

كنيسة المهد إحدى أقدم وأهم الكنائس في العالم. بنيت في عهد الإمبراطور الروماني قسطنطين بعد أن أصبحت المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية). وكانت أم الإمبراطور، الملكة هيلانة، زارت فلسطين عام 326م لمشاهدة الأماكن المهمة في حياة السيد المسيح عليه السلام، ومن ضمن ما شاهدت مغارة (كهفا) على مشارف بيت لحم، يعتقد أنها المكان الذي ولد فيه. ولا تتكون كنيسة المهد من مبنى واحد، بل هي مجمع ديني تضم رحابه مبنى الكنيسة وبعض الأديرة والكنائس التي تمثل الطوائف المسيحية المختلفة.

تجولت داخل الكنيسة مع رائد في الأجزاء المفتوحة للسياح في ذلك اليوم، والتقطت صورا، خاصة المكان الذي يعتقد أنه مسقط رأس المسيح عليه السلام، والحجرة التي يعتقد أن مريم عليها السلام أقامت فيها ويوجد فيها المهد. وضعت نجمة فضية في مكان الميلاد المزين بالمرمر، وكتب عليه باللاتينية عبارة معناها: «هنا ولد المسيح يسوع من العذراء مريم». وهناك خمسة عشر قنديلا فوق البقعة تمثل الطوائف المسيحية.

وكنيسة المهد كانت المكان الذي التجأت إليه مجموعة من المناضلين الفلسطينيين في شهر نيسان (أبريل) من عام 2002 إثر اجتياح قوات الاحتلال مدينة بيت لحم. استمر حصار الكنيسة أكثر من شهر. وكان عدد المحاصرين يزيد على مئتين وثلاثين شخصا، بينهم القائمون على خدمة الكنيسة. وشملت إجراءات الحصار قطع إمدادات الماء والكهرباء. ومنع دخول المواد الطبية والأدوية والأغذية. واضطر المحاصرون لتحضير الطعام من الأعشاب وأوراق الشجر وللتزود بالماء من بئر في ساحة الكنيسة. وأصيب بعض المحتمين في الكنيسة برصاص قناصة إسرائيليين، واستشهد بعضهم داخلها.

بعد ثلاثة أسابيع من الحصار، تم التفاوض على السماح بإخراج جثتين وتسعة من الصغار. وبعد نحو أسبوعين آخرين تم التفاوض على صفقة أفضت إلى خروج المحاصرين من الكنيسة، شريطة ذهابهم إلى خارج الضفة الغربية، فذهب بعضهم إلى قطاع غزة، واختار آخرون المنافي الأوروبية. ولم يتمكن المبعدون من اللقاء بأسرهم قبل الرحيل.

خلال الأيام التي قضيتها في بيت لحم كنت أذهب إلى سوق المدينة القريب من الفندق. في هذا السوق تجد عددا من النسوة يبعن الفاكهة، خاصة العنب، أو الخضروات. يجذبني العنب الحلواني لشرائه، فأتوقف عند إحدى بائعاته وأسألها:

«بكم العنب؟»

قالت: «الثلاثة بعشرة يمّة»، أي ثلاثة كيلو غرامات بعشرة شيكلات إسرائيلية.

«كم كيلو تريد؟» سألتني.

قلت: «أريد قطفا واحدا».

استغربت طلبي وابتسمت. أمسكت قطفا ووضعته في كيس بلاستيكي أسود علقت يديه على ميزان يدوي، فحددت وزن القطف وقالت: «خمسة يمّة». دفعت لها ثمن القطف، وعندما تذوقته في غرفتي في الفندق لم يخب ظني: كان عنبا رائعا.

العدد 6: 2006/11

العودة سائحا: الجزء الثالث

زيارة القدس والمسجد الأقصى وقبة الصخرة

خصصت لنفسي يوما إضافيا بعد الدورة التدريبية لأقوم خلاله بزيارة مدينة القدس. وقد ساعدتني فالنتينا، المسؤولة في الشركة التي تعاقدت معي، على ترتيب أمر الزيارة من خلال السفر مع سائق مسموح له بدخول القدس وجدير بالثقة. واتفقنا أن أغادر بيت لحم الساعة التاسعة صباحا.

جاءت السيارة في الموعد المتفق عليه، وأخذني السائق من بيت لحم إلى قرب الطريق المؤدي إلى القدس، في منطقة ليست بعيدة عن نفق أراه من مشارف بيت لحم. اتصل السائق بآخر ليعلمه عن مكان وجوده. تأخر السائق الآخر المسموح له بدخول القدس نتيجة وجود حاجز إسرائيلي أقيم فجأة. ثم جاءت السيارة الأخرى، وركبتها، وخلال دقائق كانت السيارة قد اجتازت النفق وصرنا في منطقة معمورة، فقلت للسائق: «قل لي أين نحن الآن؟» فقال: «أنت الآن في القدس». لم أصدق ما سمعت، ولكنه صحيح. ما أقرب القدس على بيت لحم! وما أبعدها على الفلسطيني المجاور لها! لو لم أكن سائحا يحمل جواز سفر أجنبيا لما أمكنني دخول القدس.

قلت للسائق: «هناك منطقة مطلة على القدس يستخدمها المصورون التلفزيونيون في التقارير الإخبارية من القدس أو عنها وتكون قبة الصخرة جزءا من خلفية الصورة، هل يمكن الذهاب إليها؟» قال: «نعم أعرف المنطقة

سآخذك إليها». وفعلا صعد بي إلى منطقة من الواضح أنها منطقة سياحية، وكانت القدس وقبة الصخرة قبالتي. وبدأت أصور المشهد. وصورني السائق لأكون في صور تكون القدس وقبة الصخرة خلفيتها، ثم طلبت منه أن يأخذني إلى المنطقة التي يمكنني منها زيارة المسجد الأقصى وقبة الصخرة وبعد ذلك شوارع القدس القديمة.

أخذني السائق عند الجزء المسوّر من مدينة القدس القديمة. وللسور عدة أبواب تفضي إلى منطقة الحرم. دخلت الباب الذي أنزلني عنده، باب العمود، وسرت حسب وصفه لي كيف أصل إلى المسجد الأقصى.

وجدت أحد المداخل المفضية إلى الحرم، وبعد اجتيازه كان المسجد الأقصى على يميني، وقبة الصخرة على يساري، فتوجهت أولا إلى المسجد الأقصى وصليت ركعتين تحية للمسجد. وتجولت قليلا في رحابه، ثم جلست قرب أحد الأعمدة وفتحت مصحفا وقرأت سورة.

المسجد الأقصى مسجد بسيط التصميم، ولا تكمن أهميته في بنيته، بل في كونه المكان الذي ورد ذكره في القرآن. وقد كان قبلة المسلمين الأولى، وإليه أسرى النبي محمد صلى الله علية وسلم ومن قربه عرج إلى السماء. تقول الآية الأولى من سورة الإسراء:

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ

بعد التمتع بسكينة المسجد الأقصى بعض الوقت أكملت التجول في رحاب المسجد، والتقطت بعض الصور، وخرجت لأنتقل إلى قبة الصخرة. وهنا أيضا صليت ركعتين تحية المسجد، واتجهت إلى حيث الصخرة التي يعتقد أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم عرج منها إلى السماء. نزلت بضع درجات فأصبحت في ما يشبه المغارة. كان فيها عدد من النساء يصلين، فشعرت بحرج

وهممت بالعودة، لكن أحد رجال المسجد أشار إلى طرف يمكنني الصلاة فيه. وفعلا تشجعت ونزلت الدرجات وصليت ركعتين أخريين.

مسجد قبة الصخرة مجسم ثماني مهيب. قبته ذهبية يراها زائر القدس من بعيد. أقيم المسجد فوق ما يشبه مغارة سقفها صخرة كبيرة. وتتوسط المجسم الثماني القبة الذهبية من الخارج، المزخرفة بآيات القرآن من الداخل.

جلست في مسجد قبة الصخرة، وفتحت مصحفا لأقرأ سورة أخرى من القرآن. وجلست أيضا بعض الوقت لأستمتع بسكينة المكان. ثم تجولت في رحاب المسجد والتقطت بعض الصور. خرجت من قبة الصخرة وبدأت التجول في منطقة الحرم والتقاط صور لقبة الصخرة الذهبية من زوايا مختلفة. بعد ذلك، غادرت منطقة الحرم من باب القطانين.

تجولت في أسواق المدينة القديمة على غير هدى، أنظر إلى المحلات الصغيرة الحجم عادة، وأشاهد الناس، وأسمع اللهجات. وكما في سوق بيت لحم، شاهدت نسوة يبعن الفاكهة والخضار في الحر الشديد عند مدخل باب العمود. وهذه علامة من علامات الفقر، ومن شبه المؤكد أن المرأة التي تضطر للذهاب إلى السوق لبيع الخضار والفاكهة امرأة تعيل أسرتها وحدها.

سرت في الشوارع القديمة أكثر من مرة، واشتريت بعض القطع التذكارية، ثم اتجهت نحو بوابة الخروج من القدس القديمة. سألتني امرأة خارج السور: «كم الساعة؟» وكنت قد نظرت إلى ساعتي قبل لحظات، فقلت: «إنها الواحدة والنصف»، فقالت إن رحلتها من شعفاط استغرقت ساعة ونصف ساعة. وشعفاط اسم لمخيم للاجئين الفلسطينيين يقع ضمن حدود القدس.

بالنظر إلى ضيق الوقت المتوفر لي في اليوم الأخير قبل السفر، لم يكن بوسعي زيارة الكثير من الأماكن المهمة في القدس، المدينة ذات الأهمية الكبرى عند المسلمين والمسيحيين واليهود. ويحتاج المرء إلى أكثر من يوم وإلى

دليل سياحي إن هو أراد أن يزور كل المعالم الجديرة بالزيارة لأسباب دينية أو سياحية محضة.

بعد الاستراحة بضع دقائق اتجهت إلى باب الخليل، حيث كان ينتظرني السائق حسب اتفاقنا في الصباح. واشتريت من دكان مقدسي ماء لأعوض ما فقده جسدي من سوائل بسبب الحر الشديد. وأعادني السائق المقدسي إلى وسط بيت لحم.

لأني لم أتمكن وداع جميع زملائي وزميلاتي الذين دربتهم بسبب توجهي إلى القدس قبل أن يكتمل حضورهم لمائدة الإفطار، وجدت بعد عودتي أنهم تركوا لي هدية تذكارية مصنوعة من خشب الزيتون تمثل مشهد ميلاد السيد المسيح عليه السلام.

العدد 6: 2006/11

العودة سائحا: الجزء الرابع

رحلة العودة إلى عمان

الساعة السابعة والنصف صباحا جاءت السيارة التي ستأخذني إلى منطقة الجسر. وبدأت السيارة رحلتها العكسية، وبدأت تصعد جبالا وتهبط وديانا. وفي المنطقة نفسها التي بدأ عندها جدار الفصل العنصري التقطت صورة للجدار والشعارات المرسومة عليه.

قبل الوصول إلى استراحة أريحا أوقف السائق سيارته قرب سيارة بيضاء مسموح لها الدخول إلى المركز الحدودي الذي يسيطر عليه الإسرائيليون، ودفع له الأجرة التي اتفقا عليها.

انتقلت إلى السيارة الثانية، فسارت مسافة قصيرة، ثم اصطفت وراء سيارات أخرى تنتظر السماح لها بالدخول إلى الساحة المجاورة لمركز الحدود. الجسر المعروف على الضفة الشرقية باسم جسر الملك حسين لا يزال الإسرائيليون يطلقون عليه اسم جسر اللنبي، نسبة إلى الجنرال البريطاني، ادموند اللنبي، الذي احتل القدس عام 1917.

وبدأت فترة انتظار أخرى في سيارة الأجرة. لا تستطيع أن تخمن وقت انتظارك في طابور السيارات. للانتقال من مكان إلى آخر في فلسطين عليك التحلي بالصبر وتعلم الانتظار بدون تأفف.

بعد أن سمح للسيارة بالعبور، أنزلني السائق وحقيبتي قرب جهاز تفتيش المسافرين، وطلب مني تركها على عربة بعجلات ففعلت. وبعد النظر في حقيبتي اليدوية الصغيرة ومروري عبر جهاز الكشف عن المعادن، توجهت إلى المركز. وفي المقر توجهت إلى أحد الشبابيك التي تخدم المغادرين، فسألتني المجندة: «هل دفعت ضريبة الخروج؟» فقلت: «لا».

تعين علي دفع رسوم مفروضة على المغادرين. كان هناك نافذتان كبيرتان. مقابل إحداهما تصطف أربعة طوابير قصيرة يخدمها موظف واحد. والنافذة الأخرى بدت لي مكتبا للصرافة. انضممت لأحد الطوابير الأربعة، ورحت أنتظر. وبعد الانتظار دقائق طويلة، شاهدت حملة جوازات سفر أجنبية يذهبون إلى الشباك الآخر، فأدركت أنني في صف مخصص للفلسطينيين الذين يضطرون دائما للاصطفاف في طوابير.

دفعت رسوم الخروج وأخذت الإيصال، ووقفت في أحد الطوابير القصيرة التي يقدم المصطفون فيها جوازات السفر لختمها بختم المغادرة. خدمت المجندة شخصا آخر لم يكن في الدور، وبعد دقائق، جاء دوري وختمت المجندة جواز سفري. وكانت إجراءات الخروج أقصر وأسرع من إجراءات الدخول.

خارج المركز، سألني عامل صغير عن حقيبتي ليوصلها إلى الحافلة التي كانت تنتظر لنقل الركاب إلى الجانب الآخر. كانت هناك مسافرة أخرى ذات شنطة أصغر من حقيبتي فوضع الاثنتين على عربة واحدة، وأخذهما إلى الحافلة، ووضعهما في صندوق حقائبها. سأل الشاب: «من أين أنتما؟» فقلت: «أنا من لندن»، وقالت هي: إنها من أكسفورد. قال العامل الشاب: «استمتعا بالرحلة»، فقلنا: «شكرا». وفتح لنا باب الحافلة.

نقلتنا الحافلة بعد قليل من الانتظار إلى الجانب الأردني، وقبل الوصول إلى المركز الحدودي على الضفة الشرقية، صعد شرطي أردني وأخذ جوازات

السفر. عند وصولنا الجانب الأردني صعد رجل ليجمع أجرة النقل من الركاب. سألته المرأة الأكسفوردية كم يريد من الشيكلات، فقال: «عشرين»، وعندما جاءني ناولته قطعة نقدية من فئة عشرين شيكلا كانت آخر قطعة نقد إسرائيلية في جيبي.

كانت جوازات السفر قد سلمت لرجال الأمن المختصين، فبدأوا بختمها، وبعد دقائق أخذت جواز سفري وخرجت من المركز وركبت سيارة أخذتني إلى عمان.

العدد 6: 2006/11

قهوة عربية بكثير من الهيل

على ذرى أردننا الخصيب ،،، الأخضر العابق بالطيوب

الساحر الشروق والغروب ،،، سمعتها تقول يا حبيبي

جاء صوت محمد جمال عبر المذياع من غرفة أخرى فحمل معه ذكريات أيام خلت: كانت عمان مدينة وادعة لا يخلو فيها بيت من دالية أو ياسمينة أو توتة وغير ذلك من الأغصان الخضراء المثمرة أو العطرة. تسكن في أحد جبالها (*) وتذهب ماشيا إلى مدرستك الثانوية في جبل آخر وتعود ماشيا. تمضي وقت الفراغ بلعب كرة قدم في ملاعب هنا أو هناك بين البيوت أو ليس بعيدا عنها، وبكرة تشترى بجمع ثمنها من قروش يوفرها الراغبون في اللعب معا.

عندما توسعت عمان عمرانيا كان ذلك على حساب الأراضي الزراعية. كانت الأراضي التي يزرع فيها القمح أو القثاء مجاورة للبيوت. البيت المكون من طابق واحد وحديقة تم توسيعه أفقيا فالتهم الحديقة، وعاموديا فحجب الجار عن جيرانه منظرا جميلا. الآن صار حدثا مثيرا للبهجة في النفس إن رأيت شمس الشروق أو الغروب، فقد حجبتها المباني التي لم ترحم خرسانتها أو حجارتها البيضاء الفاخرة سهلا ولا تلة. لم أصدق يوما عيني عندما شاهدت شمس الغروب من منطقة الجبيهة القريبة من الجامعة الأردنية، فصورت المشهد الجميل.

جلب التطور العمراني لعمان المزيد من الشوارع والسيارات الكثيرة وزحمة السير. عند تقاطعات بعض شوارع عمان الرئيسية يحتاج سائق السيارة إلى قدر كبير من المجازفة لكي ينتقل من جهة إلى أخرى من التقاطع. أما المشاة، فإذا احتاج أحدهم لقطع الشارع فسوف يجسد قول الشاعر الراحل عبد الرحيم محمود:

سأحمل روحي على راحتي ،،، وألقي بها في مهاوي الردى

مع فارق مهم وهو أن الشاعر كان يطلب حياة تسر الصديق أو مماتا يغيظ العدا. وفي ظل موجة الغلاء التي اجتاحت الأردن في الآونة الأخيرة، لم تعد حياة الكثيرين تسر أحدا، والموت بصدمة سيارة موت مجاني لا يغيظ العدا.

عمان تسير على طريق الاختناق كما جرى في مدن كثيرة في العالم. ليت أهلها يعلمون أن المدن التي سبقت عمان في التطور تدرك اليوم أهمية الحفاظ على البيئة، وتطلب من سكانها أن يفعلوا أي شيء يخفف من أعباء البيئة، كالتقليل من استخدام السيارة الخاصة، وتقليل استهلاك الكهرباء، وفصل المهملات إلى نفايات، ومواد يعاد تدويرها، كالورق والزجاج والبلاستيك والمعدن.

ورغم التطور العمراني، ومراكز التسوق التي تفضل أن يعرف أسمها بإضافة كلمة مول الإنجليزية له، والمقاهي الأميركية المعولمة، لا تزال القهوة العربية بكثير من الهيل مشروب الترحيب بالزائر في أماكن كثيرة. والذي اعتاد في الغرب على تناول القهوة في فنجان كبير أكثر من مرة في اليوم، يحتاج إلى دلّة بكاملها من هذه القهوة الزكية الرائحة. والذي اعتاد على صنع القهوة بنفسه، أقصد تذويب ملعقة من القهوة السريعة الذوبان في كوب من الماء الساخن، يسارع إلى هز الفنجان الصغير لإعلان الاكتفاء رغم أنه راغب في المزيد، فلا يعقل أن يبقى حامل القهوة قائما على خدمته حتى تفرغ الدلة.

زرت عمان في بداية فصل الربيع [2008]. إنها الفترة التي ترى فيها عشبا أخضر وأزهارا برية في المساحات الصغيرة التي لم يشيد عليها بعد بيوت

أو مبان متعددة الشقق. وفي زيارتي الأخيرة تسنى لي أن أزور حرم الجامعة الأردنية. هناك تشعر بأنك موجود في متنزه أحسن تنسيقه، وتم فيه الاعتناء بشجيرات الأقاحي البيضاء فبلغت حجما لم أره من قبل، وأزهرت وكادت تحيط الشجيرة برداء أبيض لكثرة الأزهار.

هل ستبقى ذرى خضراء؟ وهل ستبقى طبيعة عابقة بالطيوب يمكن يوما أن أصنع في أحضانها قهوة كثيرة الهيل وأنا أشاهد شمس الشروق أو الغروب؟ أريد أن أسمع ذلك الصوت الذي يقول «يا حبيبي». أنا في شوق إليه.

= = =

(*) كانت أغلبية أحياء مدينة عمان تعرف بجبل كذا، كجبل عمان، وجبل التاج، وجبل الهاشمي، وجبل الحسين.

العدد 24: 2008/5

مكتبة البيرة في خدمة المعرفة

عندما بلغت مرحلة توثيق المراجع المستخدمة في رسالتي الهادفة إلى الحصول على درجة الدكتوراه من جامعة وستمنستر في لندن [2012]، استعصى عليّ توثيق أحد المراجع، وهو كتاب عن جماعة الإخوان المسلمين وجبهة العمل الإسلامي في الأردن صادر في التسعينات عن مركز دراسات الأردن الجديد.

هذا الكتاب كانت لدي نسخة منه، ولكني لم أجدها بعد البحث عنها في كل مكان في البيت والجامعة.

بدأت محاولاتي البحث عن نسخة من الكتاب في مكتبات جامعات لندن، بما في ذلك الجامعة البريطانية، أكبر مكتبات بريطانيا. ولكني لم أجد نسخة منه. بدأت أبحث عنه في الإنترنت، وقادني بحثي إلى إعلان من مركز دارسات الأردن الجديد عن وقف أعماله، وهكذا لم يكن ممكنا الحصول على نسخة أخرى من الناشر.

وطلبت من أخي محمد أن يبحث لي عن نسخة في مكتبات الأردن، فلم يجده. ثم أبلغته أن فهرس مكتبة الجامعة الأردنية يشير إلى وجود نسخة من الكتاب، لكنه لم يجد نسخة مكتبة الجامعة الأردنية.

قادني بحثي في الإنترنت إلى اكتشاف أن مكتبة البيرة العامة (فلسطين) لديها نسخة من الكتاب، فاتصلت بالمكتبة، وشرحت للأخت التي ردت على

الهاتف بلهفة أنني أكملت كتابة رسالتي وأوثق المراجع واحتاج لتوثيق كتاب موجود في مكتبتكم، واتصلت بكم آملا مساعدتي، فسألتني عن الرقم المرجعي للكتاب، فأعطيتها إياه، فقالت اتصل بعد خمس دقائق.

عاودت الاتصال وكان الكتاب أمامها، فطلبت عنواني فصلين ورقمي صفحتي البداية والنهاية لكل فصل، وهكذا تمكنت من توثيق المرجع توثيقا كاملا وحسب أسلوب التوثيق المعتمد في رسالتي.

وقد شكرت الأخت الفاضلة وطلبت أن أعرف اسمها لأرسل رسالة شكر أذكر فيها اسمها، فقالت إن اسمها سماح، واكتفت بذلك. وفعلا بعثت على الفور رسالة شكر لها على العنوان الإلكتروني للمكتبة، ولكني أشعر بأني مدين للأخت سماح ولمكتبة البيرة العامة بشكر علني على إنقاذي من ورطتي ووضع المكتبة في خدمة المعرفة خارج حدود فلسطين التي تعاني من خنق شعبها وخنق طموح أبنائه وبناته في النهل من مناهل العلم والمعرفة.

شكرا من أعماق القلب للأخت سماح ولمكتبة البيرة العامة في فلسطين. دامت المكتبة في خدمة المعرفة في فلسطين وخارجها.

العدد 74: 2012/8

= = =

إضافة: بعد تسليم الرسالة ومناقشتها، تذكرت أنني ربما أعرت الكتاب لزميلتي في الجامعة، الباحثة السودانية سهير محمد، فسألتها إن كنت فعلت ذلك، فردت مؤكدة أن اثنين من كتبي في حوزتها، وأعادتهما لي.

هوامش ومراجع

هل الأدب العربي (لا يزال) محظور(ا)؟ العدد 82: 2013/4

(1) Edward Said (1990). «Embargoed Literature», *The Nation*, Vol. 251, Issue 8, September 17, 1990.

(2) أكبر قاعدة بيانات عن الترجمة من وإلى كل اللغات متوفرة في موقع يونيسكو. يمكن البحث باستخدام الوصلة التالية:

http://www.unesco.org/xtrans/bsform.aspx

عن الحداثة (العدد 74: 2012/8)

Berger, P.eter. (1977). *Facing Up To Modernity: Excursions in Society, Politics, and Religion*. New York: Basic Books.

Rustow, Dankwart. (1967). *A World of Nations: Problems of Political Modernization*. Washington, DC: Brookings Institution.

معايير حقوق الإنسان (العدد 75: 2012/9)

Beetham, David. (2004). Democratic Quality: Freedom and Rights

http://iis-db.stanford.edu/pubs/20433/Freedom_and_Rights.pdf

Humana, Charles. (1987). *World Human Rights Guide*. London: Pan Books.

Mouffe, Chantal. (2008). «Which World Order: Cosmopolitan or Multipolar?» *Ethical Perspectives* 15(4), pp. 453-467.

Klug, Francesca, Starmer, Keir, and Weir, Stuart. (1996). *The Three Pillars of Liberty: Political Rights and Freedoms in the United Kingdom*. New York: Routledge.

الديمقراطية وفرضها بالقوة (العدد 77: 2012/11)

Beetham, David (2009). «The contradictions of democratization by force: the case of Iraq», *Democratization*, 16:3, 443-454.

Keane, John (1991). *The Media and Democracy*. Cambridge: Polity Press.

Rustow, Dankwart (1967). *A World of Nations*. Washington, DC: The Brookings Institution.

عامان على محاولات التغيير في العالم العربي (العدد 79: 2013/1)

(1) Berger, Peter. ed. (1999). *The Desecularization of the World: Resurgent Religion and World Politics*. Washington, D.C.: Ethics and Public Policy Centre; and Grand Rapids, Michigan: William B. Eerdmans Publishing Company, p. 2.

الديمقراطية والإسلام: متعارضان؟ (العدد 39: 2009/9)

المراجع العربية

قطب، سيد. معالم في الطريق. عمان: دار عمار للنشر والتوزيع. 2009.

زلوم، عبد القديم. الديمقراطية نظام كفر. يحرم أخذها أو تطبيقها أو الدعوة إليها. منشورات حزب التحرير. 1990.

الهضيبي، مأمون. دعاة لا قضاة. القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية. 1900.

المراجع الإنجليزية

Al-Maududi, Abu Al-Ala, (1976). «Political Theory of Islam». In. Khurshid, Ahmad (ed). *Islam: Its Meaning and Message*. Leicester: Islamic Foundation.

Ayubi, Nazih (1995). *Over-Stating the Arab State*. London: Tauris.

Dahl, Robert (1971). *Polyarchy: Participation and Opposition*. New Haven: Yale University Press.

Esposito, John (1999). *The Islamic Threat: Myth or Reality?* (Third Edition), NYC, Oxford University Press.

Huntington, Samuel (1991). *The Third Wave: Democratization in the Late Twentieth Century*. Norman: University of Oklahoma Press.

Keane, John (1991). *The Media and Democracy*. Cambridge: Polity Press.

Lewis, Bernard (2001). *What Went Wrong? Western Impact and Middle Eastern Response*. New York: Oxford Univ. Press.

Quandt, William (2004). «Islam Isn't the Problem». In Abou El-Fadl, Khaled (ed). *Islam and the Challenge of Democracy*. Princeton: Princeton University Press.

Schumpeter, Joseph (1976). Capitalism, Socialism and Democracy. London: Allen and Unwin.

إصدارات عـود الـنــد

الإصدارات الورقية: بالعربية

الهواري، عدلي. 2019. المجلات الثقافية الرقمية: تجربة عود الند 2006-2019.

الهواري، عدلي. 2018. تقييم الديمقراطية في الأردن: 1990-2010.

الهواري، عدلي. 2018. الديمقراطية والإسلام في الأردن: 1990-2010.

الهواري، عدلي. 2017. بيروت 1982: اليوم «ي». الطبعة الثانية. يتضمن الكتاب وثائق ذات علاقة بالجهود السياسية والدبلوماسية للتوصل إلى اتفاق على خروج منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت

الهواري، عدلي. 2016. كلمات عـود الـنـد. افتتاحيات مختارة، السنوات 8-10.

الهواري، عدلي. 2016. غسان يبتسم. افتتاحيات مختارة، السنوات السبع الأولى.

الهواري، عدلي. 2015. اتحاد الطلبة المغدور. الطبعة الثانية. كتاب يوثق تأسيس وانهيار الاتحاد العام لطلبة فلسطين في الولايات المتحدة.

الإصدارات الورقية: بالإنجليزية

Hawwari, A. 2020. *Reluctant Liberalisation, Jordan: A Democratic Audit, 1989-2019.*

Hawwari, A. 2020. *Controlled Democratisation: Democracy and Islam in Jordan, 1989-2019.*

Hawwari, A. 2016. *Democracy and Islam/ism.*

Hawwari, A. 2016. *Jordan: A Democratic Audit, 1990-2010.*

الإصدارات الرقمية: بالعربية

2015: مختارات من عـود الـنـد (3): مقتطفات من موضوعات نشرت في المجلة.

2015: مختصر ومفيد. دروس موجزة في الإملاء والنحو.

2014: مختارات من عـود الـنـد (2): مجموعة ثانية من مقتطفات من موضوعات نشرت في المجلة.

2014: دليل أساسيات الكتابة (أحكام الطباعة؛ علامات التنقيط؛ توثيق البحوث).

2014: غسان يبتسم: مختارات من افتتاحيات عـود الـنـد، السنوات الأربع الأولى.

2013: مختارات من عـود الـنـد (1): مقتطفات من موضوعات نشرت في المجلة.